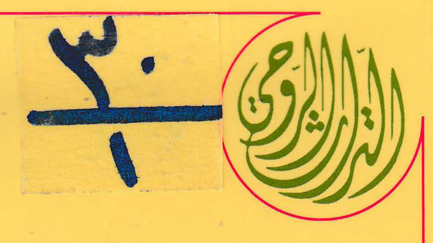


عِظَـةُ الجَـبَـل

للقدِّيس أَوْغُسْطينُس

نقله إلى العربيّة

الخور أسقف يوحنّا الحلو

دار المشرق - بيروت



عِظَـة الجَبَـل

للقدِّيس أَوْغُسْطِينُس

نقله إلى العربيّة

الخورأسقف يوحنّا الحلو



دار المشرق – بيروت

لا مانع من طبعه

المطران سيزار إسايان
النائب الرسوليّ للاتين في لبنان
جعيتا، في ١٧ شباط ٢٠١٧

دار المشرق ش.م.م.
ص.ب. ١٦٦٧٧٨
الأشرفية، بيروت ٢١٥٠ ١١٠٠
لبنان
www.darelmachreq.com

ISBN 2-7214-5556-7

التوزيع: مكتبة إسطفان
—— موزّعون – ش.م.ل.
ص.ب: ٥٠١٦٥، فرن الشبّاك
بيروت – لبنان
هاتف: ٢٨٣٣٣٣ (٠١)
فاكس: ٢٨٩٣٣٣ (٠١)
info@librairiestephan.com
www.librairiestephan.com

مقدّمة

الخورأسقف بولس الفغاليّ

أوَّل كتاب لأوغسطينُس نقله الخورأسقف يوحنّا الحلو: **إعترافات**. وتلاه **شرح رسالة القدّيس يوحنّا الأولى**؛ ثمَّ **خواطر فيلسوف في الحياة الروحيَّة**، **ومدينة الله** في جزئين. وفرحتُ حين طلب منّي النصَّ اللاتينيّ لـ **محاورة الذات**، فصدر. وصدر أيضًا **تعليم المبتدئين أصول الدين المسيحيّ**، **في الحياة السعيدة**، **في الكذب**. ومضى صديقنا الذي كنّا زرناه قبل أيَّام، إلى بيت الآب. وهكذا غاب القلم، وانتقلت الشعلة إلى سعدالله سميح جحا الذي يواصل نقل **العظات حول المزامير**. ولكن هل غاب قلم الخورأسقف يوحنّا الحلو؟ كلّا. فابن أخيه أرسل **الطريقة الفضلى للحياة المسيحيَّة استنادًا إلى عظة الجبل**، فتذكَّرت هذا العامل الدؤوب في عالم القدّيس أوغسطينُس. وطُلب منّي أن أكتب هذه المقدّمة ففرحتُ بأن أقوم بهذا العمل الجلل.

أمّا **العظة على الجبل** فجاءت في المجلَّد ٣٤ من مجموعة الآباء اللاتين. وبحسب تسلسل «المراجعات» كانت هذه العظةُ المؤلَّفَ الخامس الذي دوَّنه أوغسطينُس بعد رسامته الكهنوتيَّة بوقت قليل، أي سنة ٣٩١م. ففي نهاية الشتاء وفي بداية ربيع ٣٩١، طلب الكاهن الشابّ من الأسقف فاليريوس السماح للاعتكاف على دراسة **الكتاب المقدّس**، فقدَّم تفسيرَيْن لسفر التكوين وبعض نبذات حول سفر

المزامير. ولكنَّ العظة في **إنجيل متَّى ف ٥-٧**، كانت أوَّل مؤلَّف يفسِّر فيه **العهد الجديد**.

بالنسبة إلى أوغسطينُس، عظة الجبل هي المركز الخلقيّ لتعليم المسيح. وأعطى هذا القدّيس أيضًا للنصّ تفسيرًا نسكيًّا وتصوُّفيًّا. تخيَّل بأنَّ العظة ليست من مقتطفات أوغسطينُس الكبيرة. أمّا أهمّيَّتها فتبرز من توليف لصعود النفس إلى الله في التطويبات الثماني، والصلاة الربّيَّة (أي الأبانا) ومواهب الروح القدس كما نقرأها في إشعيا (١١: ٢-٣) في اليونانيَّة السبعينيَّة. فالتأويل الذي يقدّمه أوغسطينُس لهذه المقاطع، يتركَّز على العدد سبعة - وتبدو التطويبة الثامنة بشكل مراجعة إجماليَّة - مفسَّرة في ارتباط بسبع طلبات الصلاة الربّيَّة وبسبع مواهب الروح. ويُفسّر هذا كلّه في ضوء صعود النفس إلى الله. أمّا أوغسطينُس فكان يظنُّ أنَّ بعض المختارين يمتلكون رؤية مستمرَّة لله في هذه الحياة.

وإذ شرح هذا الواعظ نصَّ إنجيل متَّى استعمل عدَّة تقنيَّات تأويليَّة أشار إليها ووصفها في كتب سبق وصنَّفها مثل **النفع من الإيمان وسفر التكوين في قراءة حرفيَّة، الكتاب الناقص والديانة الحقَّة**. بحث أوغسطينُس على المعنى الحرفيّ ليفهمه في كلِّ أبعاده. وبعد ذلك يكون التأويل مرارًا أليغوريًّا، واستعاريًّا ورمزيًّا. ونهجُ هذا الشارح هو «بينصوص» أي يستعمل نصوصًا من **العهد القديم** ومن **العهد الجديد** ليصل إلى معنى نصّ متَّى. مثل هذا الأسلوب كان عاديًّا لدى آباء الكنيسة.

وعظة الجبل هي أوَّل مؤلَّف تظهر فيه عبارة «الشريعة الطبيعيَّة» في معنى خلقيّ. وإن يكن لهذه العبارة لونًا رواقيًّا، إلّا أنَّ الواعظ ربطها

بما في الرسالة إلى رومة (٢: ١٤-١٦): «فالوثنيُّون الذين بلا شريعة، إذا عملوا بحسب الطبيعة ما تأمرُ به الشريعة، كانوا شريعة لأنفسهم، هم الذين لا شريعة لهم، فيدلُّون على أنَّ ما تأمر به الشريعة من الأعمال مكتوب في قلوبهم، وتشهد لهم (أو: لها) ضمائرهم وأفكارهم، فهي تارة تشكوهم وتارة تدافع عنهم. وسيظهر هذا كلَّه، كما أُعلنُ في بشارتي، يوم يدين الله بيسوع المسيح ما خفيَ من أعمال الناس».

سبق أمبروسيوس، أسقف ميلانو في إيطاليا، أوغسطينُس في **عرضه** حول إنجيل لوقا الذي يعود إلى سنة ٣٨٨-٣٨٩، كما سبقه قبريانوس في **الصلاة الربّيَّة**. ويمكن أن يكون تأثَّر هذا الكاتب العظيم بما تركه أوريجان في الوجهات النسكيَّة والصوفيَّة.

وفي «المراجعات» صحَّح أوغسطينُس ما كتبه وشرح عظة الربّ على الجبل وتوسَّع فيها. هذه التصحيحات حول السقطة ونتائجها وحول النهوض، هي مهمَّة بشكل خاصّ. وفيها حاول الواعظ أن ينسّق بين المسيحيَّة وتعاليم أفلاطون، الفيلسوف اليونانيّ. وصحَّح القول الذي بحسبه «لدى فاعلي السلام لا حركة تمرّد ضدّ العقل» ظنَّ في البداية أنَّ هذا كان وضع الرسل. ولكنَّه فهم فيما بعد أنَّ الناس لا يستطيعون في هذه الحياة أن يعرفوا السلام. ممّا حدا بأوغسطينُس لأن يفهم كلام الرسول: «ولكنّي أشعر في أعضائي بشريعة أخرى تحارب شريعة عقلي، وتجعلني أسيرًا لشريعة الخطيئة، تلك الشريعة التي هي في أعضائي» (رو ٧: ٢٣). فهذا الكلام ينطبق على الناس الذين هم تحت الشريعة كما ينطبق على الذين تحت النعمة. وفي هذه الحياة، نتائج الخطيئة الأصليَّة باقية عند الرسل. وفي القيامة فقط نجد التحرُّر الكامل.

تلك مسيرة القدّيس أوغسطينُس في شرحه لعظة الجبل التي دعاها «الطريقة الفضلى للحياة المسيحيَّة». إذا كنَّا لا نستطيع الوصول إلى ملء السلام إلَّا في القيامة، فالخورأسقف يوحنّا الحلو بلغ إلى هذا السلام وهو الذي رافق يسوع في موته وقيامته وهو يمجّده كذلك الخادم الحكيم الأمين الذي عرف إرادة سيّدة وعمل بها، الذي تاجر بالوزنات فقيل له: «أحسنتَ أيُّها الصالح الأمين... أدخل نعيم سيّدك.»

الطريقة الفضلى للحياة المسيحيّة
استنادًا إلى عظة الجبل



الفصل الأوّل

١- إنّ مَن يدرس، بتقوى وإمعان، العظة التي نطق بها سيّدنا يسوع المسيح على الجبل، بحسب إنجيل متّى، يجد فيها، على ما أظنّ، ما يؤهلّه لأن يحيا حياةً مسيحيّة ذات خُلقٍ رفيع. ولست أقول هذا الكلام اعتباطيًّا بل استنادًا إلى ما أنهى به الربّ كلامه، قائلًا: «كلّ من يسمع كلامي هذا ويعمل به، يشبه رجلًا حكيمًا بنى بيته على الصخر، فنزل المطر وجرت الأنهار وهبّت الرياح واندفعت على ذلك البيت فلم يسقط؛ لأنّ أساسه كان على الصخر. وكلّ من يسمع كلامي هذا، ولا يعمل به، يشبه رجلًا جاهلًا بنى بيته على الرمل فنزل المطر وجرت الأنهار وهبّت الرياح وصدمت ذلك البيت، فسقط وكان سقوطه عظيمًا» (متّى ٧: ٢٤-٢٧). وهو لم يقلْ كلّ من يسمع كلامي وحسب؛ بل أضاف قائلًا: «كلّ من يسمع كلامي هذا»، مشيرًا بكلمة هذا، على ما أظنّ، إلى ما يقوله على الجبل، بصفته تعليمًا كاملًا لحياة من يعيشون بموجبه؛ فيشبهون الذين يبنون بيوتهم على الصخرة. وأقول ذلك لأُبيّن، بوضوح، ما في هذه العظة من كمالٍ للحياة، على أن نعود، بالتفصيل، إلى الموضوع، في حينه.

٢- إنّ عظة الجبل تبدأُ على الشكل التّالي: «فلمّا رأى يسوع الجموع صعد إلى الجبل ولمّا جلس دنا منه تلاميذه ففتح فاه يعلّمهم قائلًا» (متى ٥: ١-٢) حتّى إذا سأل واحدٌ عن معنى الجبل أجيب عليه: الجبل يعني الوصايا الكبرى؛ لأنّ الله قد أعطى الصغرى،

بواسطة خدّامه الأنبياء القدّيسين، بحسب انتظام الأزمنة والأوقات، الشعب الذي كان يرعاه، آنئذٍ، بالخوف؛ فكان عليه أن يحرّره، على يد ابنه، بواسطة الوصايا الكبرى. لقد أعطى الصغار الصغرى وأعطى الكبار الكبرى؛ وحرّرهم بواسطة ابنه الذي عرف أن يقدّم الدواء الناجع إلى الجنس البشريّ في حينه. ولا عجب، إن كان الله الذي خلق السماء والأرض، قد أعطى الكبرى في سبيل الملكوت السماويّ وأعطى الصغرى في سبيل الملكوت الأرضيّ. وإعلانًا لذاك العدل يُنشد الملك: «عدلُك مثلُ جبال الله» (مزمور ٣٥: ٧) وذاك هو ما يعنيه الجبل الذي يجلس عليه ويعلّم منه، كما يليق بكرامة المعلّم الذي دنا منه تلاميذه ليكونوا قريبين إليه، بأجسادهم فيسمعوا كلامه، وأقرب إليه بالروح فيعملوا بموجبه. وما كانت الاستدارة «فتح فاه يعلّمهم قائلًا» إلّا بمثابة إشارةٍ إلى أنّ كلامه سوف يكون أطول ممّا جاء في الشريعة القديمة على ألسنة الأنبياء ولأنّه ينطق به شخصيًّا.

٣- طوبى للفقراء بالروح

يقول الربّ إذن: «طوبى للفقراء بالروح لأنّ لهم ملكوت السماوات» (متى ٥: ٣). إنّنا نطالع ما كتب بشأن الأمور الزمنيّة: «كلّ شيءٍ باطل هو كآبة للروح» (سفر الجامعة ١: ١٤) وكآبة الروح تعني الغرور والكبرياء. ولقد جاء على لسان عامّة الشعب أنّ المتكبّرين هم ذوو روح متعالية؛ والروح تعني أيضًا الريح على حدّ ما جاء في **الكتاب المقدّس**: «النار والبرد والثلج والضباب وروح العاصفة» (مزمور ١٤٨: ٨).

ومن ذا الذي لا يدري أنّ المنتفخين كِبرًا هم أشبهُ بمن انتفخوا ريحًا؟ ولهذا يقول الرسول: «العلم ينفخ والودّ يبني» (١ قور ٨: ٢)

وقيل أيضًا، بحقٍّ، إنّ من كانوا فقراءَ بالرّوح، هم ودعاء يتّقون الله، وليسوا على شيءٍ من الكبرياء؛ وعلى هذا النحو تبدأ السعادة بالحكمة، عملًا بالقول المأثور: «رأس الحكمة مخافة الله» (بن سيراخ ١: ١٦)، فعلى المتكبّرين، إذن، أن يطمحوا إلى ملكوت أرضيّ ويحبّوه؛ «أمّا الفقراء بالروح فإنّ لهم ملكوت السماوات» (متى ٥: ٣).

الفصل الثاني

٤- «طوبى للودعاء فإنّهم سيرثون الأرض» (متّى ٥: ٤)

أعتقد أنّ الأرض هنا هي التي قيل عنها في أحد المزامير: «قلتُ أنت معتصمي، أنت حظّي في أرض الأحياء» (مزمور ١٤١: ٦) وإنّه لنوعٌ من الثبات، بقوّةٍ، في ميراثٍ دائم، تستريح فيه النفس، من خلال خير يتوفّر لها حيث تقيم؛ وتستريح كما يستريح الجسمُ في الأرض، فتتغذّى بشرابٍ خاصّ بها. إنّه المكان الذي يسعد فيه القدّيسون ويستريحون؛ علمًا بأنّ الودعاء هم الذين لا يدعون الشرَّ يقهرهم؛ بل يقهرون الشرّ بالخير. (رومية ١٢: ٢١) إذن؛ فعلى من حُرموا تلك الفضيلة أن يتقاتلوا؛ في سبيل الخيور الأرضيّة يتقاتلون؛ ولكن «طوبى للودعاء لأنّهم يرثون الأرض»؛ وهو إرثٌ لا يقوى أحدٌ على انتزاعه منهم.

٥- «طوبى للحزانى فإنّهم سيعزَّون» (متى ٥: ٥)

سبب الحزن هو خسارة من نحبّ وما نحبّ. أمّا المهتدون إلى الله فهم الذين يتخلّون فعلًا عن كلّ ما كانوا يحبّون من العالم؛ لأنّ فرحهم لم يعدْ في ما كانوا عليه سابقًا؛ وإذ يتوقون إلى الخيور الأبديّة،

يشعرون ببعض الحزن؛ إنّما يجدون تعزية لهم في الروح القدس البارقليط أي المعزّي فيخسرون الأفراح الزمنيّة ويذوقون الأبديّة.

٦- «طوبى للجياع والعطاش إلى البرّ فإنّهم سيُشبعون» (متى ٥ : ٦)

إنّ المخلّص يعني، بهذا الكلام، الأبرار التّوّاقين إلى الخير الحقيقيّ، الثابت، الذي منه سيشبعون؛ وعنه قال: «طعامي هو أن أعمل مشيئة أبي» (يوحنا ٤ : ٣٤) الّتي هي برّ وصلاح حتّى «إنّ كلّ من يشرب منه، تجري من بطنه أنهارُ ماءٍ للحياة الأبديّة» (يوحنّا ٤ : ١٤).

٧- «طوبى للرحماء لأنّهم سيُرحمون» (متى ٥ : ٧)

إنّه يطوّب الرحماء الذين يهبّون لنجدة التعساء لأنّهم سوف يُكافأون ويحرَّرون ممَّا هم فيه من بؤسٍ وشقاء.

٨- «طوبى لأنقياء القلوب سوف يعاينون الله» (متى ٥ : ٨)

ما أشدّ حماقة الذين يبحثون عن الله بأعينهم الخارجيّة، هو الذي يُرى بالقلب، بحسب ما جاء في الكتاب: «إلتمسوه بقلبٍ سليم» (الحكمة ١ : ١) لأنّ القلب النقيّ هو القلب السليم. وكما أنّ النور لا يُرى إلّا بأعينٍ نقيّة كذلك، هو الله، فإنّه لا يُرى، إلّا إذا كان نقيًّا، هذا الذي به يمكن أن يُرى.

٩- «طوبى لفاعلي السلام فإنّهم أبناء الله يُدعون» (متى ٥ : ٩)

في السلام، الكمال؛ ولا شيء فيه يُزعج؛ والمسالمون يُدعَوْن أبناء الله؛ وليس فيهم من يناوئُه؛ إنّهم يتوقون إلى الاقتداء به، لأنّهم مسالمون، انضباطيّون، يكبحون جماح أنفسهم ويخضعون للعقل والروح؛ يسيطرون على شهوات الجسد ويصبحون ملكوتًا لله، حيث الكلّ في نظامٍ يعود الأمر فيه إلى ما هو الأسمى في الإنسان على كلّ ما

هو مشترك مع الحيوان؛ ويبقى الفهم والعقل خاضعَيْن لسلطةٍ عُليا هي ابن الله الوحيد الذي هو الحقّ بالذات؛ ولا يستطيع أن يأمر فيه على سلطات دنيا إلّا من كان خاضعًا لسلطةٍ عليا وهو السلام المختصّ على الأرض بذوي الإرادة الصالحة (لوقا ٢ : ١٤) ويُطرد من ذاك الملكوت، حيث يسود السلام والأمان، رئيس ذاك الجيل المالك على القلوب الشرّيرة المناوئة للنظام حتّى إذا تأمّن ذلك السلام الداخليّ وسيطر، فلن يقوى من طُرِدَ خارجًا، وإن طغى وتجبّر، على تأكيد متانة البنيان. وإنّ الآلات العاجزة عن هدمه تشهد على صلابة داخله. ولهذا فإنّنا نقرأ ما يلي: «طوبى للمضطهدين من أجل البرّ فإنّ لهم ملكوت السماوات».

الفصل الثالث: تسلسل الطوبيّات الثماني الرائع

١٠- تلك هي الطوبيّات الثماني لأنّ الربّ يتوجّه، بنوع خاصّ، إلى الحاضرين، قائلًا: «طوبى لكم إذا شتموكم واضطهدوكم» (متّى ٥ : ١١)، بينما توجّه سابقًا، وبوجهٍ عامّ، إلى العالم كلّه؛ وفي الواقع، لم يقل: «طوبى للفقراء بالروح لأنّ لكم ملكوت السماوات بل قال «لأنّ لهم ملكوت السماوات»، ولم يقل «طوبى للودعاء لأنّكم ترثون الأرض بل قال لأنّهم سيرثون الأرض» وأكمل، وصولًا إلى الثامنة، وفيها يقول: «طوبى للمضطهدين في سبيل البرّ لأنّ لهم ملكوت السماوات. إنّما، من الآن فصاعدًا، ها هو يتكلّم إلى الحاضرين، وإن يكن ما قاله سابقًا موجّهًا أيضًا إليهم، ويبدو أنّ كلّ ما يقوله لهم يصلح توجيهه أيضًا إلى الغائبين، ومن سوف يرون النور لاحقًا؛ لذلك يجب علينا أن نركّز اهتمامنا على العدد ثمانية. تنطلق الطوبى الأولى من التواضع «طوبى للفقراء بالروح» أي لغير المتكبّرين، لذوي النفوس

الخاضعة للسلطان الإلٰهيّ، التي تخشى من أن تُساق إلى العذاب بعد الموت حتّى ولو استطاعت أن تعتبر نفسها سعيدة في هذه الحياة. إنطلاقًا من تلك الحالة، تتوصّل إلى معرفة الكتب المقدّسة، فتظهر سعيدةً بروح التقوى لئلّا تنتقد ما يعتبره الجهلة باطلًا فتخرج على القانون من خلال مناكفات عنيفة. إنطلاقًا من تلك الساعة، تبدأ تدرك ما تقيّدها به العادة والخطيئة في هذا العالم؛ ومن ثمّ، وفي هذه الدرجة الثالثة، التي هي درجة المعرفة، تروح تبكي على خسارتها الخير الأسمى، حين ترى ذاتها أسيرة الطرف الآخر. تبقى الدرجة الرابعة، درجة العمل والجهود المضنية التي يجب على النفس التي تقوم بها، خلاصًا لها من اللذّة المسمومة التي احتجزتها. هناك يجوع الإنسان ويعطش إلى الأبد، وتصبح الشجاعة ضروريّة جدًّا لأنّ الإنسان لا يتخلّى، بدون ألم، عمّا هو عليه من فرح. وفي الدرجة الخامسة فإنّ الذين يثابرون على العمل، ينصحون بالتخلّي عمّا هم عليه، لأنّ الإنسان، أيًّا كان، لا يقوى على الخلاص من مآسٍ معقّدة وضخمة، بهذا المقدار، من دون مساعدة عُلويّة؛ ولهذا «الطوبى للرحماء لأنّهم سيرحمون» وتقوم الدرجة السادسة على طهارة القلب التي إذا استمدّت قوّتها من وعيها للأعمال الصالحة، تستطيع أن ترى الخير الأسمى الذي لا يعيش إلّا في العقل النقيّ والصافي. أمّا الطوبى السابعة فهي الحكمة بعينها؛ إنّها رؤية الحقيقة التي تشيع السلام في الإنسان بكليّته، وتجعله، إلى حدٍّ ما، شبيهًا بالله، وصولًا به إلى النتيجة التالية: «طوبى لصانعي السلام فإنّهم أبناء الله يُدعون» أمّا الطوبى الثامنة فإنّها تدخل نوعًا ما في الأولى، حيث نذكر في الاثنتين معًا ملكوت الله قائلين: «طوبى للمساكين بالروح فإنّ لهم ملكوت السماوات» ثمّ «طوبى للمضطهدين في سبيل البرّ لأنّ لهم ملكوت السماوات»؛ وذاك قول

يعني التالي: «من ذا يفصلنا عن محبّة المسيح؟ أشدّة؟ أم ضيق؟ أم اضطهاد؟ أم جوع؟ أم عري؟ أم خطر؟ أم سيف؟» (رومة ٨: ٣٥) هناك، إذن، سبع درجات، بلوغًا إلى الكمال؛ لأنّ الثامنة تختصر الكلّ في المجد فتظهر ما هو كامل وتعود إلى الدرجة الأولى لكي تكمل الدرجات الأخرى بالأولى والأخيرة.

الفصل الرابع:
درجات الكمال السبع كما وردت في أشعيا، ولكن في ترتيب انحداريّ؛ المعنى السرّيّ في عد ٨

١١- يبدو لي أنّ عمليّات الروح القدس السبع التي تكلّم عليها أشعيا (أشعيا ١١: ٢-٣) تلتقي أقوال المخلّص بدرجاتها دون ترتيبها. لأنّ أشعيا يبدأ بالأعلى وهنا بالأدنى. وفي الواقع، إنّ النبوءة تضع الحكمة في المقام الأوّل، ومخافة الله في المقام الأخير؛ إنّما «رأس الحكمة مخافة الله» (بن سيراخ ١: ١٦) وعليه، فإن سِرْنا في نظام تصاعديّ، فمخافة الله هي الأولى من حيث الدرجات؛ ثمّ التقوى، فالمعرفة والقوّة والمشورة والفهم والحكمة هي السابعة. إنّ مخافة الله تليق بالمتواضعين الذين يُقال فيهم: «طوبى للفقراء بالروح» أي غير المنتفخين، غير المتكبّرين الذين قال لهم الرسول: «لا تستكبرْ بل خفْ» (رومية ١١: ٢٠) أيْ، إيّاك وأن تتعالى. التقوى تليق بالودعاء لأنّ من يسعى بتقوى يحترم الكتاب المقدّس ولا ينتقد ما لا يزال فهمه عصيًّا عليه. وانطلاقًا من ذلك الموقف فإنّه لا يقاوم؛ وتلك هي الوداعة عينها؛ ولهذا فقد قيل: «طوبى للودعاء». العلم ميزةُ الحزانى الذين يتعلّمون من الكتب المقدّسة، في أيّ شرور يقعون؛ تلك التي

يشتهونها في جهلهم كأنّها صالحة لهم ومفيدة؛ حتّى قيل عنهم: «طوبى للحزانى»، أمّا القوّة فهي من نصيب الجياع والعطاش لأنّهم يعملون في سبيل الخير الحقيقيّ، كفرًا بأمور الدنيا الماديّة؛ فقيل عنهم: «طوبى للجياع والعطاش إلى البرّ». أمّا المشورة فتليق بالرحماء لأنّ العلاج الوحيد الناجع للتخلّص من الشرور هو التسامح ومساعدة الغير بكلّ ما لدينا من قوّة؛ وعن أولئك قيل «طوبى للرحماء» أمّا الفهم فهو من نصيب الأنقياء القلوب؛ لأنّ النظر المنقّى يستطيع أن يرى «ما لم تره عين الجسد ولم تسمع به الأذن وما لم يخطر على قلب الإنسان» (رومية ١٨ : ١٧ و٢٣)، الذين قيل عنهم: «طوبى لأنقياء القلوب» الحكمة تليق بصانعي السلام لأنّ كلّ ما لديهم منتظمٌ وليس فيهم ما يتمرّد على العقل، بل الكلّ يخضع لروح الإنسان الذي هو الله. وعنهم قيل: «طوبى لصانعي السلام».

١٢- أمّا النساء وهنّ المكافأة الوحيدة للجميع فإنّ هذه المكافأة تتّخذ أسماء متعدّدة، بحسب تباين الدرجات. لقد سمّيت، بادئ ذي بدءٍ، ملكوت السماوات لأنّها الحكمة السامية والكاملة للنفس العاقلة. وعلى هذا النحو فقد قيل: «طوبى للفقراء بالروح لأنّ لهم ملكوت السماوات» وكأنّه قيل: «رأس الحكمة مخافة الربّ» فالميراث هو من نصيب الودعاء؛ لقد وُعدوا بالأرض مكافأةً لهم على تقواهم. والعزاء للحزانى لكونهم يعرفون ما خسروه وما فيه يغرقون. «طوبى للحزانى لأنّهم يُعزّون». ويبقى الشبع للجياع والعطاش إلى البرّ استعادةً لقوى بذلوها، سعيًا بجرأة إلى خلاصهم «طوبى للجياع والعطاش إلى البرّ فإنّهم يشبعون» والرحمة للرحماء الذين يعملون بالحقّ والمشورة السميا، لينالوا من الأقوى ما يبذلون في سبيل الضعفاء «طوبى للرحماء فإنّهم يرحمون». أمّا الأنقياء القلوب الذين أُعطوا أن يروا الله بما لهم من

بصيرةٍ منقّاة فإنّهم يستطيعون أن يروا ما هو خالد: «طوبى لأنقياء القلوب فإنّهم يعاينون الله» ويبقى التشبّه بالله لصانعي السلام لأنّهم يحوزون الحكمة بكاملها وقد خُلقوا على صورة الله في الإنسان الجديد: «طوبى لصانعي السلام لأنّهم سوف يُدعون أبناء الله» ويمكن كلّ ذلك أن يتحقّق في هذه الحياة الحاضرة كما نؤمن بأنّه قد تمّ في الرسل، إذ يستحيل أن نصف بالكلام ذلك التحوّل إلى هيئةٍ ملائكيّة وعُدنا بها للحياة الأخرى. «طوبى لمن يُضطهدون من أجل البرّ لأنّ لهم ملكوت السماوات». إنّ تلك الطوبى الثامنة التي تعود إلى الأولى وتصوّر الإنسان كاملًا قد تعني ختان الشريعة القديمة الذي يتمّ في اليوم الثامن وقد تمّت من خلال قيامة الربّ بعد السبت، في اليوم الثامن الذي هو في الوقت عينه اليوم الأوّل؛ ومن خلال الاحتفال بهذين الثامنين أي الختان في اليوم الثامن بحسب الشريعة القديمة ومن خلال قيامة الربّ التي تمّت بعد السبت أي في اليوم الثامن الذي هو اليوم الأوّل وبيوم الخمسين أي العنصرة. في الواقع ٧ × ٧ تعطي ٤٩ يضاف إليها اليوم الثامن وصولًا إلى اليوم الخمسين؛ ثمّ العودة منها، نوعًا ما إلى نقطة الانطلاق. في ذلك اليوم أُرسل الروح القدس ليقودنا إلى ملكوت السماوات. به ننال الميراث تعزيتنا وغذاءنا. هو يرحمنا ويطهّرنا ويمنحنا سلامه وإذ نصبح كاملين نحتمل في سبيل الحقيقة والبرّ الاضطهادات التي تأتينا من الخارج.

الفصل الخامس: سعادتنا باطنيّة

١٣- لقد قال: «طوبى لكم إذا شتموكم واضطهدوكم وافتروا عليكم بالسوء من أجل اسمي كاذبين، افرحوا وابتهجوا لأنّ أجركم عظيم في السماوات» (متّى ٥: ١١)

ألا فليعلم كلّ من يسعى، مجاهرًا بمسيحيّته، طلبًا لأفراح هذا العالم وامتلاك الخيرات الزمنيّة، أنّ سعادته تكمن في داخله، بحسب ما جاءَ على لسان النبيّ، قائلًا للنفس الأمينة، بنت الكنيسة: «بنت الملك جميع مجدها في الداخل» (مزمور ٤٤ : ١٤). أمّا في الخارج فليس لنا سوى اللعنة والاضطهاد والافتراء. ومع ذلك فلكلِّ تلك العذابات مكافأة عظيمة في السماء، بدأ يتذوّقها في داخلها الصابرون الذين يستطيعون أن يقولوا: «إنّنا نفتخر أيضًا بالشدائد لعلمنا أنّ الشدّة تنشئ الصبر والصبر ينشئ الامتحان والامتحان الرجاء والرجاء لا يخيّب لأنّ محبّة الله أُفيضت في قلوبنا بالروح القدس الذي وُهب لنا» (رومية ٥ : ٣-٥).

وفي الواقع، لا يكفي أن يتحمّلَ الإنسانُ الضيقات لكي يجني ثمارها؛ إنّما يجب عليه أن يحتملها، حبًّا للمسيح بفرح، وليس بصبر وحسب، لأنّ كثيرين، من أهل البدع، يخدعون النفوس ويُغرونها بالاسم المسيحيّ، ويبتلون بمثلها، من دون أن يكون لهم نصيب في المكافأة؛ لأنّه لم يقل: «طوبى لمن يُضطهدون» وحسب، بل أضاف: «من أجل البرّ»، إذن، حيث لا استقامة في الإيمان، فلا مجال للبرّ «لأنّ البارّ يحيا بالإيمان» (رومة ١ : ٧١). أمّا المنشقّون فلا يحقّ لهم أن يَعِدوا نفوسهم بمثل ذلك الثواب لأنّه، حيث لا محبّة، فلا مجال للبرّ «لأنّ المحبّة لا تنال القريب بسوء» (روما ١٣ : ١٠) «إذ لو كانت فيهم المحبّة لما كانوا مزّقوا جسد المسيح الذي هو الكنيسة» (كولوسي ١ : ٢٤).

١٤- يمكننا أن نسأل عن الفرق القائم بين الكلمات التالية: «عندما يلعنكم الناس» وبين «عندما يفترون عليكم كلّ سوء» ما دامت

اللعنة ليست سوى قول السوء؛ ولكن شيءٌ هي اللعنة التي تصحبها الشتائم، ضدّ إنسان حاضر، كما كان اليهود يقولون لربّنا: «ألسنا على حقّ حين نقول إنّك سامريّ وإنّ بك شيطانًا؟» (يوحنا ٨: ٤٨). وشيءٌ آخر، اغتياب إنسانٍ والنيل من سمعته كما نقرأه بشأن المخلّص نفسه: «منهم من يقولون عنه إنّه نبيّ وآخرون يقولون: كلّا بل هو يضلّل الشعب» (يوحنا ٧: ١٢) أمّا الاضطهاد فهو عنفٌ يمارس، أو مكائد تنصبُّ، على مثال ما فعل ذلك الذي سلّم يسوع والذين صلبوه. وبما أنّه لم يكتفِ بالقول: «سوف يقولون عليكم كلّ سوء» بل أضاف «إفتراء» وأيضًا: «بسببي» فإنّه يقصد التوجّه، على ما أظنّ، إلى الذين يزعمون أنّهم حين يقال فيهم سوء، يسعون إلى التباهي بالاضطهادات والإهانات المنصبّة عليهم؛ بينما الحقيقة هي التي تقال عندما تنكشف ضلالاتهم حتّى إذا صودف أنْ داخلَ القول بعضُ الأخطاء (ذاك ما يحدث عادة بسبب الخفّة البشريّة) فإنّهم، على الأقلّ، لا يحتملون ذلك حبًّا بالمسيح، لأنّ من لا يحمل اسمَ مسيحيّ، وفقًا للإيمان الصحيح والعقيدة الكاثوليكيّة، لا يكون تلميذًا للمسيح.

١٥- قال: «سُرّوا وابتهجوا لأنّ أجركم عظيم في السماوات» (متّى ٥: ١٢). لا أظنّ أنّه يقصد هنا بالسماوات الأقسام العليا من هذا العالم المنظور ولا أجرنا هذا الذي ينبغي أن يكون أبديًّا وثابتًا، قائمًا على ما يخضع لتبدُّل الزمان والمكان. بل أعتقد أنّ السماوات تعني ذلك الفلك الروحيّ، مسكن البرّ الأزليّ الذي، بالنسبة إليه، تُدعى النفس الأثيمة أرضًا، وفقًا لما قيل لآدم الخاطئ: «أنت تراب وإلى التراب تعود» (تكوين ٢: ١٩). وعن تلك السماوات قال الرسول: «إمّا نحن فسيرتنا في السماوات» (فيليبي ٣: ٢٠) على أنّ الذين يتمتّعون بالخيور الروحيّة فإنّهم يتذوّقون، من الآن، الأجر الذي لن

يكتمل إلّا حين يلبس هذا الجسد المائت ثوب الخلود. «لأنّهم هكذا اضطهدوا الأنبياء من قبلكم» (متى ٥: ١٢)، هكذا جعل المسيح، بوجه عامّ، الاضطهاد في اللعنات والافتراء فجاء المثل بمحلّه؛ وقد جرت العادة بأن يُضطهَد من يجاهر بالحقّ غير أنّ الاضطهاد هذا لم يمنع الأنبياء الأقدمين من أن يبشّروا بالحقيقة.

الفصل السادس: «أنتم ملح الأرض»

١٦- وبكثير من المنطق يتابع الربّ قائلًا: «أنتم ملح الأرض» (متّى ٥: ١٣) مشيرًا بذلك إلى الحماقة التي يجب أن يُنعت بها أولئك الذين يسعون إلى تكديس الخيور الزمنيّة، وإذ يخشون حرمانهم منها يخسرون الخيور الأبدية التي لا يقدر الناس لا أن يمنحوهم إيّاها، ولا أن ينتزعوها منهم. وعلى هذا النحو «فإن فسد الملح فبِمَ يملّح؟» أي، إن كنتم أنتم، نوعًا ما، تطيّبون الشعوب، تخسرون ملكوت السماوات بخوفكم من الاضطهادات الزمنيّة، فأين نجد من ينجّيكم من الضلال وقد اختاركم الله لتخلّصوا منه الآخرين؟ «إنّ الملح الفاسد لا يعود، إذن، صالحًا إلّا لأن يطرح خارجًا وتدوسه الناس بأرجلهم» وعليه، فليس من يحتمل الاضطهاد تدوسه الأرجل، بل ذاك الذي يخاف الاضطهاد فيخسر فضيلته. وفي الواقع، وحده تدوسه الأرجل، ذاك الذي يُطرح أرضًا؛ ولكنّ الذي ليس مطروحًا على الأرض، وإن تحمّل عذابًا كثيرًا بجسده، يبقى بقلبه متشبّثًا في السماء.

١٧- «أنتم نور العالم» وكما قال سابقًا «ملح الأرض» هكذا يقول الآن «نور العالم» وكما أنّه لا يجوز أن تعني الأرض التي تكلّم عليها سابقًا هذه الأرض التي ندوسها بل الناس الذين يسكنونها أو الخطأة

منهم الذين أرسل إليهم الربّ الملح الرسوليّ لكي يملّحهم ويقضي على طباعهم السيّئة. هكذا لا يجوز أن نفهم هنا بالعالم الأرض والسماء بل الناس الذين في العالم يحبّون العالم؛ فكان على الرسل أن ينيروهم. «لا تخفى مدينة قائمة على جبل» أي حين تكون مؤسّسة على برّ عظيم وواضح، وهو البرّ الذي أشار إليه الربّ بالجبل الذي منه أطلق الربّ كلمته. «ولا يُوقد مصباح ويوضع تحت المكيال» وكيف لنا أن نشرح الكلمات التالية «يوضع تحت المكيال»؟ وهل يعني ذلك القول ببساطة إخفاء المكيال كمن يقول: لا أحد يوقد سراجًا لكي يخفيه؟ وهل يعني المكيال شيئًا آخر؟ وهل يعني وضع المصباح تحت المكيال: أن يؤثر الإنسان منافع الجسد على إعلان الحقيقة فيتوقّف عن التبشير بها، خوفًا من أن يعاني بعض المتاعب، في ما هو جسديّ وزائل؟ على كلّ حال، موفّق هو اختيار لفظة مكيال، سواءٌ كان لجهة ما يلقى فيه كلٌّ أجرًا لأعماله بحسب ما قال الرسول: «ليأخذ كلّ واحد لقاء ما عمل في الجسد» (٢ قور ٥: ١٠) أو بحسب النصّ الآخر الذي يتكلّم على فكرة الكيل الشخصيّ قائلًا: «بالكيل الذي تكيلون به يُكال لكم» (متى ٧: ٢) أو لأنّ ما يهمُّ الجسد من الأمور الزائلة تبدأ وتنتهي في غضون أيّام معدودة قد يُشار إليها بالمكيال؛ بيد أنّ الخيور الأبديّة والروحيّة لا يمكن حصرها ضمن حدود: «لأنّ الله يهب الروح بلا حساب» (يوحنا ٣: ٣٤). إذن، كلّ من يطفئ نور التعليم الصحيح ويحجبه تحت المنافع الزمنيّة يضع المصباح تحت المكيال. «بل على المنار» وهذا يتحقّق عندما يُخضع الإنسان جسدَه لخدمة الله فيُعلي بشارة الحقيقة على عبوديّة الجسد. ومن هذه العبوديّة تتألّق الحقيقة فتتسلّل إلى عقول السامعين من خلال الصوت واللسان وحركات الجسد الأخرى التي تساهم في الأعمال الصالحة. إنّ الرسول يضع إذن المصباح على

المنارة حين يقول: «وأصارع لا كمن يصارع الهواء بل أقمع جسدي وأستعبده لئلّا أرذل أنا نفسي بعد أن بشّرت آخرين» (١ كور ٩: ٢٦-٢٧). ثمّ يضيف: «فيضيء لكلّ من في البيت». وأظنّ أنّه يجب أن نفهم بعبارة البيت: المكان الذي يقيم فيه الناس، أي العالم بحسب المعنى الذي سبق ذكره: «أنتم نور العالم» إلّا إذا كان المقصود رؤية وجه الكنيسة فيه. وذلك لا يخلو من الصواب.

الفصل السابع

١٨- على الإنسان أن يتوق إلى تمجيد الله من خلال أعماله الصالحة.

«فليضئ نوركم هكذا أمام الناس، ليرَوا أعمالكم الصالحة ويمجّدوا أباكم الذي في السماوات» (متّى ٥: ١٦). لو أنّه اكتفى بالقول: «ليضئ نوركم هكذا أمام الناس فيروا أعمالكم الصالحة» لبدا وكأنّه يبغي اكتساب ثناء الناس الذي يبحث عنه المراؤون والطامحون إلى تكريم الناس إيّاهم والساعون إلى الأمجاد الباطلة. لقد قال الرسول ضدّهم: «لو كنت ما أزال أسعى إلى إرضاء الناس، لما كنت قطّ خادمًا للمسيح» (غلاطية ١: ١٠). ولقد جاء على لسان النبيّ: «لقد خزي الذين يرضون الناس لأنّ الله رذلهم» وأيضًا: «إنّ الله بدّد عظام النازل عليك» (مزمور ٥٢: ٦). ويقول بولس الرسول: «فلا نتلهّفن إلى مجد باطل» (غلاطية ٥: ٢٦). كما يقول بولس نفسه: «فليمتحن كلّ واحد عمله فيكون له الفخر إذ ذاك في نفسه لا في سواه» (غلاطية ٦: ٤). ولم يكتف المخلّص بالقول: «ليَروا أعمالكم الصالحة» بل أضاف «فيمجّدوا أباكم الذي في السماوات»، حتّى إذا حصل الإنسان على

رضى أقرانه على أعماله الصالحة فلا يضمن فيه غايته النهائيّة بل يعزو كلّ شيء إلى الله ولا يطلب سوى مجد الله من خلال تأييد الناس؛ لأنّه يجب على من يكيلون المدائح أن يوجّهوها إلى الله، لا إلى الناس، على غرار ما فعل يسوع حين جاؤوه بمخلّع فشفاه وذهل الناس من قدرته، كما كتب: «فاعترت الجموع الرهبة ومجّدت الله الذي آتى البشر مثل هذا السلطان» (متى ٩: ٨). وإنّ بولس الذي يقتدي بالمسيح يقول لنا أيضًا: «إنّ الذي كان حينًا يضطهدنا هو الآن يبشّر بالإيمان الذي كان حينًا يدمّره فكانوا يمجّدون الله بسببي» (غلاطية ١: ٢٣-٢٤)

١٩- «أنا ما جئت لأنقض بل لأكمل»

بعد أن حثّ سامعيه على أن يستعدّوا لتحمّل كلّ شيء، في سبيل الحقيقة والبرّ، وألّا يُخفوا الخير الذي يقبلونه بل أن يتعلّموا لكي يعلّموا، بنيّة صالحة، الآخرين، موجّهين ما يقومون به من صلاح لمجد الله من دون مجدهم الخاصّ، يباشر الربّ بتنويرهم وتعليمهم ما يجب أن يعلّموه كما لو أنّهم سألوه قائلين: ها إنّنا مستعدّون لتحمّل كلّ شيء من أجل اسمك وعدم إخفاء شيء من تعليمك. أمّا التعليم الذي تمنعنا من إخفائه فما هو؟ والذي من أجله تأمرنا بأن نتحمّل كلّ شيء؟ أفتبطل يا ربّ ما جاء في الشريعة؟ كلّا، فأجابهم: «لا تظنّوا أنّي جئت لأبطل الشريعة والأنبياء، أنا ما جئت لأبطلها بل لأكملها» (متى ٥: ١٧)

الفصل الثامن

وسيلتان لإكمال الشريعة - الأصغر في ملكوت السماوات

٢٠- لهذا التعبير معنيان يجب شرح كلّ منهما، على حدة، لأنّ القائل: «أنا ما جئت لأنقض الشريعة بل لأكملها» يعني أمرَين: إمّا أن

يضيف إليها ما ينقصها أو أن يكمّل ما فيها. الافتراض الأوّل أنّ من يسدُّ ثغرةً في شيءٍ ما لا يهدم ما يجد، بل يثبّته ويكمّله ويقوّيه ولهذا يضيف النصّ قائلًا: «الحقّ أقول لكم، إلى أن تزول السماء والأرض لا تزول ياءٌ أو نقطة واحدة من الناموس حتّى يتمّ الكلّ» (متى ٥: ١٨). إذن حينما يتمّ ما يشكّل الكمال فالأحرى بما يشكّل البداية أن يتحقّق. أمّا العبارات: «ولا تزُل من التوراة ياء أو نقطة واحدة فتلك دعوة صارخة إلى إكمال كلّ حرفٍ بمفرده، وإن يكن صغيرًا، بما فيها الياء أصغر الحروف العبريّة كما أنّ النقطة هي صغرى الحركات. ويشير الربّ من خلال تلك الكلمات إلى أنّ ما في الشريعة سوف يتمّ في أدقّ تفاصيله. ثمّ يضيف قائلًا: «كلّ من يحلّ واحدة من تلك الوصايا الصغار ويعلّم الناس هكذا فإنّه يدعى صغيرًا في ملكوت السماوات». (متى ٥: ١٩). الياء والنقطة تدلّان هنا على أقلّ الوصايا أهميّة. ومع أنّها صغرى الوصايا فلها أهميّتها حتّى إنّ كلّ من يعملُ على إهمالها أو إلغائها يُدعى الأصغر في ملكوت السماوات: أو لعلّه يحرّم عليه دخول ملكوت السماوات حيث الساكنون كبار. أمّا الذي يعمل بها ويعلّمها، أي من لا يلغيها، بل يحترمها، فذاك يُدعى كبيرًا في ملكوت السماوات. وعلى هذا الأساس، فإنّه يدخل ملكوت السماوات، حيث الكبار مقبولون. وبذلك يتعلّق كلّ ما يلي.

الفصل التاسع: «ليزد برّنا على برّ الكتبة والفرّيسيّين»

٢١- «لكم أقول إن لم يزد برّكم على برّ الكتبة والفرّيسيّين فلن تدخلوا ملكوت السماوات» (متّى ٥: ٢٠) أي أنّكم لن تدخلوا ملكوت السماوات، ليس إن لم تتمّوا أدنى أحكام الشريعة التي تصوغ الإنسان

صياغة أوّليّة وحسب، بل كلّ ما أضفته إليها أنا الذي جئتُ، لا لأنقض الشريعة، بل لأكملها. ولكنّك تقول لي: إن قال، انطلاقًا ممّا سبق، عن تلك الوصايا الصغيرة إنّ كلّ من تعدّاها وعلم ذلك صغيرًا في ملكوت السماوات، بينما يدعى كبيرًا، من يعمل بها ويعلّمها هكذا، فأيّ حاجة كانت به لكي يضيف إلى هذه الوصايا الصغيرة في الشريعة ما إن كان مَن يتمّمها ويعلّمها كبيرًا؟ وعليه يجب أن تفهم عبارة «أمّا من يعمل ويعلم فيدعى كبيرًا في ملكوت السموات، لا شأن تلك الوصايا الصغيرة بل بتلك التي سوف يعلن الربّ عنها». وما هي إذن؟ إنّه يقول: «إن لم يزد برّكم على برّ الكتبة والفرّيسيّين فلن تدخلوا ملكوت السماوات». إذن كلّ من يتعدّى تلك الوصايا الصغيرة ويعلّم إبطالها يدعى صغيرًا. أمّا الذي يعلّمها ويحفظها فلن يُعتبر كبيرًا وجديرًا بملكوت السماء وإن لم يكن يصغر من خالفها؟ إن أراد أن يكوننّ كبيرًا وأهلًا لملكوت السماوات فعليه أن يعمل ويعلّم على مثال ما يعلّم المسيح الآن، أي أن يزيد برّه على برّ الكتبة والفرّيسيّين، لأنّ برّ الفرّيسيّين يقوم على تحريم القتل؛ أمّا برّ الذين يبتغون دخول ملكوت الله فيقوم على التخلّي عن الغضب كلّيًّا وبغير وجه حقّ. إنّ تحريم القتل لمن أتفه الأمور؛ وكلّ من يتعدّى تلك الوصيّة يدعى حقيرًا في ملكوت الله. وكلّ من عمل ولم يقتل لن يكون بسبب ذلك كبيرًا في ملكوت السماوات وجديرًا به؛ وإن يكن أعلى درجة ممّن يقتل، إنّما يتكامل في تخلّيه عن الغضب، بدون سبب وإن توصّل إلى الانتهاء منه يبتعد كثيرًا عن القتل. وعلى هذا النحو فكلّ من يعلّمنا عن التخلّي كليًّا عن الغضب لا يبطل الشريعة التي تحرّم علينا القتل؛ بل بالأحرى فإنّه يكمّلها، بحيث إنّنا ونحن نمتنع عن القتل في الخارج وعن الغضب في الداخل نحتفظ ببراءتنا.

٢٢- سمعتم إنّه قيل للأوّلين: «لا تقتل وكلّ من يقتل يُدان أمّا أنا

فأقول لكم كلّ من غضب على أخيه بلا سبب يُدان؛ ومن قال لأخيه راقا يستوجب حكم المحفل ومن قال له يا أحمق يستوجب نار جهنّم». (متّى ٥ : ٢١-٢٣). ما الفرق بين خضوع المرء لحكم القضاء أو لحكم المحفل أو لنار جهنّم؟ أدهى عقاب هو العقاب الأخير؛ إنّ الربّ يحذّرنا من وجود عدّة درجات بين أخطاء خفيفة وأخرى ثقيلة، وصولًا بمرتكبيها إلى جهنّم النار. وإن كان الخوفُ من القضاء أقلّ من المحفل فهذا الأخير يُخشى أقلّ من جهنّم النار. وعليه يجب أن نعرف أنّ غضبنا على أخينا أخفّ ذنبًا من قولنا له يا أحمق؛ وإنّ دعوتنا له يا أحمق أخفّ من أن ندعوه يا راق (أخرق). وما كان العقاب على درجات إلّا لأنّ الذنب على درجات.

٢٣- في كلّ ذلك لفظة واحدة تبقى غامضة وهي «راقا» وهي ليست يونانيّة ولا لاتينيّة بل أراد بعضهم أن يعزوها إلى اليونانيّة بمعنى «الأطمار» ففسّروا راقا بالإنسان المغطّى بالأطمار أي الثياب الوسخة البالية. ولكن إذا سئلوا كيف تقول باليونانيّة «مغطّى بالأطمار» فهم لا يجيبون البتّة بكلمة «راقا» وكان بوسع المترجم اللاتينيّ أن يستعمل بسهولة لفظة Pannosus بدلًا من لفظة راقا، طارحًا جانبًا ما ليس من اليونانيّة ولا من اللاتينيّة. وإنّي لأجدُ جواب إنسانٍ يهوديّ استوضحته عنها فقال: ليس لهذه اللفظة معنى خاصّ بها؛ ولكنّها تستعمل ببساطة للدلالة على حركة في النفس الغضبى. كما أنّ اللغويّين يستعملون كلماتٍ تعبيرًا عن حالة نفسيّة معيّنة، مثل لفظة «أواه» للتحسّر و«أفّ» للتذمّر والتشكّي وويحك للزجر والتهديد، إلى ما هنالك من ألفاظ تختصّ بهذا الإنسان من دون سواه فيستحيل نقلها إلى لغة أخرى. وهذا ما حدا بالمترجمين اليونان واللاتين إلى الاحتفاظ بها كما وردت بالعبريّة لأنّهم لم يجدوا لها مرادفًا في لغاتهم.

٢٤- في تلك الخطايا درجات. بادئ ذي بدء يغضب إنسان ويكتم غضبه في قلبه وإن صدرت عنه كلمة غضب، متأثّرًا، فقد لا تعني شيئًا ولكن تؤكّد بقساوتها عمّا يشعر به من ألم فتصيب من توجّه إليه، إذ ذاك يكون ذنبه أعظم ممّا لو كان قد كظم غيظه وسكت. أمّا إذا لم يكتف بالسكوت، بل أخذ يتفوّه بكلام يعبّر بوضوح وصراحة عن مسبّة، فهل يبقى بعدئذٍ من مجال للشكّ في أنّ الخطأ قد تجاوز حدود التعجّب والاستغراب؟ ما كان في البداية سوى الغضب ثمّ ألحق بكلمة فالغضب والكلمة التي عبّرت عنه ثمّ بثالثه تحمل في طيّاتها تعبيرًا صريحًا عن اللوم. أنظروا الآن القصاصات الثلاثة: القضاء والمحفل وجهنّم النار. في القضاء مجال للدفاع وفي المحفل حكم مع الإبقاء على مجال للتداول في نوع العقاب الواجب إنزاله بالمتّهم. وأخيرًا جهنّم النار التي لا تحتمل أدنى شكّ في الإدانة أو في العقوبة كما هي الحال في المحفل. في جهنّم النار حكم على المدان وعقاب يجب تنفيذه. إنّنا لنرى، إذن، درجات في الخطيئة وفي العقاب؛ ولكن من ذا الذي يستطيع أن يتبيّن الوسائل غير المنظورة التي يتمّ بواسطتها تطبيق العقاب بشكل متوازن على الأنفس؟ إنّنا لنستطيع، إذن، أن نقيس المسافة الفاصلة بين برّ الفرّيسيّين والبرّ الآخر الأعظم الذي يفسح مجالًا في ملكوت السماوات، من حيث إنّ القتل لكونه الأفظع من عبارة مهينة مع ذلك، فالقتل يخضع للقضاء؛ وهنا الغضب البسيط ذاته، الأخفّ من الأخطاء الثلاثة المذكورة سابقًا؛ هناك أيضًا، فإنَّ مسألة القتل يترك القضاء فيها لمحكمة بشريّة، بيد أنّ كلّ شيءٍ هنا يُترك لقضاء الله والمحكوم عليه يُعاقب بجهنّم النار. أمّا إن قلنا إنّه في هذا القضاء الأكبر، حيث الإهانة يُعاقب عليها بجهنّم النار، فالحكم على القاتل يجب أن يكون أقسى من الحكم على الإهانة! إذ ذاك نضطرّ إلى الإقرار بأنّ في جهنّم النار أيضًا درجات.

٢٥- لا شكّ في أنّه يجب التنبّه أمام هذه العبارات الثلاث، وما تحمله من كلام ذي معانٍ خفيّة. لا شيء من ذلك في الجملة الأولى، حيث نجد كلّ التعابير الضروريّة: «كلّ من غضب على أخيه بدون حقّ يخضع للقضاء» والثانية التي قيل فيها: «من قال لأخيه «راقا» حيث أخفيت عبارة «دون حقّ» ثمّ نضيف: يخضع للمحفل. وفي الثالثة حيث قيل: «أمّا الذي يقول: «يا مجنون» بعد أن يضاف إليها أمران إلى أخيه ومن غير وجه حقّ. على هذا النحو يبرّر سلوك الرسول الذي يدعو الغلاطيّين «أغبياء» مع أنّه يسمّيهم أيضًا أخوة (غلاطية ٣: ١) لأنّه لا يقول ذلك عن غير حقّ. علينا أن نفهم، إذن، أنّ المقصود هنا الأخ لأنّه سوف يقال لنا كيف يجب علينا في البرّ الأعظم أن نعامل أيضًا عدوًّا لنا.

الفصل العاشر:

علينا أن نترك قرباننا أمام المذبح ونروح نصالح أخانا

٢٦- ومن ثمّ يتابع المسيح قائلًا: «فإن جئت تقرّب على المذبح قربانك وذكرت هناك أنّ لأخيك عليك شيئًا. فدع هناك قربانك أمام المذبح وبادر فصالح أوّلًا أخاك ثمّ عد وقرّب القربان» (متى ٥: ٢٣-٢٤). بهذا يتّضح أنّ الأخ هو المقصود في ما ورد أعلاه؛ لأنّ الجملة الثانية المعطوفة بالفاء على الأولى تدلّ على استنتاج لأنّ الربّ لا يقول: «إن جئت تقرّب على المذبح قربانك بل فإن جئت تقرّب على المذبح قربانك» لأنه إذا كان الغضب على أخيك بغير وجه حقّ، غير مسموح به، والآن تدعوه راقا أو أخرق، فالأحرى بك ألّا تحمل الغضب في قلبك حتّى يتحوّل إلى ضغينة. وذاك القول يتّصل أيضًا بما

قيل: «لا تغرب الشمس على غضبكم» (أفسس ١٤: ٦). إنّ الرّبّ يأمرنا بأن نترك أمام المذبح قربانًا ننوي تقديمه إذا ما ذكرنا أنّ لأخينا علينا شيئًا ونبادر إلى مصالحته ثمّ نعود فنقرّب قرباننا. فإن أخذنا الكلام بحرفيّته استطعنا أن نفكّر أنّ الخطوة متيسّرة إن وجدنا الأخ، وتصبح المصالحة ضروريّة لأنّ الوصيّة تأمرك بأن تترك قربانك أمام المذبح. أمّا إذا كان الأخ غائبًا، أو صادف وجوده وخطرت تلك الذكرى، فعبثًا تظنّ أنه يجب عليك أن تدع قربانك أمام المذبح وتجوب الأرض والبحار بحثًا عنه ثمّ تعود لتقدّم قربانك لله؛ إنّنا ملزمون بالمعنى الروحيّ كيلا نعطي النصّ معنًى مغايرًا للمنطق.

٢٧- وعليه، يمكننا أن نفهم بالمذبح المنصوب في الهيكل الداخليّ المكرّس لله، الإيمان ذاته الذي يشير إليه المذبح المنظور. إذن، أيًّا تكن التقدمة التي نقرّبها إلى الله سواء أكانت نبوءة أم عقيدة أم صلاة أم نشيدًا أم مزمورًا أم أيّ تقدمة روحيّة أخرى تخطر على البال، فالله لا يقبلها إلّا إذا صدرت عن إيمان صادق طاهر وسليم. وإنّ هراطقة كثيرين يفتقرون إلى المذبح، أي الإيمان الصحيح، وينطقون بالتجديف، عوضًا من الترانيم التي تنقصهم بعد أن أنهكتهم معتقدات بشريّة؛ فقد طرحوا، نوعًا ما، أرضًا، صلاتهم. على من يقدّم القربان أن يتحلّى بنيّة صادقة؛ ولذلك، حين يكون علينا أن نقرّب شيئًا من هذا النوع في قلبنا، أي في الهيكل الداخليّ الموقوف على الله لأنّ الرسول يقول: «لأنّ هيكل الله مقدّس وأنتم الهيكل» (١ قور ٣: ١٧). كما يقول أيضًا «فيسكن المسيح بالإيمان في قلوبكم» (أفسس ٣: ١٧). حتّى إذا ذكرنا أنّ لأخينا علينا شيئًا، أي إن كنّا قد أسأنا إليه بشيء ما، إذ ذاك نكون مدينين له، أمّا إن أساء هو إلينا فيكون مدينًا لنا، فلا نكون بحاجة إلى الذهاب إليه ومصالحته. وفي الواقع، ليس عليك أن تطلب

السماح ممّن أهانك: حسبك أن تسامحه كما تشتهي أن يسامحك الربّ ويغفر لك كلّ ما ارتكبته ضدّه: إنّي أقول إنّنا إن كنّا قد أسأنا إليه فعلينا أن نذهب إليه؛ لا على أرجل الجسد بل بحركة الروح، فنجثو أمامه بتواضع وبكلّ محبّة، ونسرع إليه بالفكر تائبين، بحضور من يجب علينا أن نقدّم إليه قرباننا. وبهذه الطريقة، إن كان حاضرًا، تستطيع أن تطيّب خاطره بعواطفك الصادقة فتصالحه وتستغفره تحت نظر الله، بذهابك إليه لا بخطى الجسد البطيئة، بل بانطلاقة محبّة وسريعة؛ ومن ثمّ، وأنت عائد، تركّز انتباهك على ما كنت قد بدأت القيام به ثمّ تقرّب قربانك.

علينا أن نبادر إلى المصالحة إن كنّا قد أسأنا إلى أخينا.

٢٨- بيد أنّ الذي يقوم بذاك العمل ويأبى أن يغضب على أخيه بلا سبب ويعفّ عن أن يقول له بلا مبرّر «راقا» أو أن يدعوه يا أخرق (وهي خطايا ثلاث تتسبّب بها الكبرياء المفرطة) أو كلّ من صادف أن وقع في إحدى تلك الخطايا الثلاث التي ذكرناها ولجأ إلى العلاج الوحيد فطلبَ الصفح، بتواضعٍ، من كلّ قلبه؛ أقول، من هو ذاك الإنسان إلّا الذي لم ينتفخ صدره بروح المجد الباطل؟ إذن، فالطوبى للفقراء بالروح لأنّ لهم ملكوت السماوات... والآن لنرَ ما يلي:

الفصل الحادي عشر

٢٩- «بادر فصالح أخاك ما دمت معه في الطريق، لئلّا يسلمك الخصم إلى القاضي والقاضي إلى الشرطيّ وتُلقى في السجن؛ فالحقّ أقول لك لن تخرج من هناك حتّى تؤدّي آخر ربع فلس» (متّى ٥: ٢٥ - ٢٦). إليكم ما أعني بالقاضي: «لأنّ الآب لا يدين أحدًا بل أعطى

الحكم كلّه للابن» (يوحنا ٥: ٢٢). وإليكم ما أعني بالشرطيّ: «وإذا بملائكة أتوا ليخدموه» (متى ٤: ١١). وإننا نؤمن بأنه سوف يأتي مع ملائكته ليدين الأحياء والأموات. وأعني بالسجن عذابات الظلمات التي يسمّيها في محلّ آخر «البرانيّة» (متى ٨: ١٢) وإنّي لأؤمن بذلك، لأنّ الفرح بالمكافآت الإلٰهيّة يتحقّق في الروح بالذات. وفي ما هو أشدّ التصاقًا أيضًا بالداخل إن كان ذلك ممكنًا بحسب ما قال للخادم الأمين: «أدخل فرّح سيّدك» (متى ٢٥: ٢٣). وعلى هذا النحو فإنّ القانون الحاليّ للجمهوريّة يفوّض إلى حارس القضاء الحقّ بأن يطرح خارجًا من يحكم عليه بالسجن.

٣٠- أمّا ربع الفلس الأخير الواجب دفعه فمن الممكن تفسيره بشكل معقول؛ وهو أنّه لن يبقى ذنبٌ بلا عقاب؛ ونقول، حتّى الثمالة، عندما نريد أن نعبّر بأنّ ذاك الشيء المفروض قد تمّ تنفيذه ولم يبق منه شيء. وقد يكون ربع الفلس الأخير تلك الخطايا الأرضيّة التي تحتلُّ المكان الأخير بين عناصر الكون الأربعة: أوّلًا السماء ثمّ الهواء والماء وأخيرًا الأرض. وانطلاقًا من ذلك الترتيب يمكن المرء أن يفهم العبارة «حتّى تؤدّي آخر فلس» بما يلي: حتّى تكفّر عن خطاياك التي ارتكبتها على الأرض بعد أن قيل لآدم: «إنّك تراب وإلى التراب ستعود» (تكوين ٣: ١٩). أما بشأن عبارة «حتّى تؤدّي» فمن الغرابة ألّا تعني العذاب المدعوّ أبديًّا. وهل يستطيع إنسان أن يسدّد دينًا حيث لا يبقى مجال للندامة والتكفير؟ قد تكون صيغة «حتّى تؤدّي» هي ذاتها صيغة «إجلس عن يميني حتّى أجعل جميع أعدائك تحت قدميك» (مزمور ١٠٩: ١)، وهذا لا يعني أنّ الابن لن يعود قائمًا عن يمين الآب حين يصبح أعداؤه تحت قدميه كما لا تعني أقوال الرسول: «لأنّه يجب أن يملك المسيح حتّى يجعل جميع أعدائه تحت قدميه» (١ قور ١٥: ٢٥). إنّه يبطل أن

يملك الابن حين يصبح أعداؤه تحت قدميه. على ذاك الشكل يجب أن تفهم تلك العبارات. «يجب أن يملك حتّى يضع أعداءه تحت قدميه» تعني أنّ ملكوت المسيح أبديّ لأنّ أعداءه سوف يكونون أبد الدهر تحت قدميه، كما نفهم عبارة «لن تخرج من هناك حتّى تؤدّي آخر ربع فلس»، أي أنّ الخاطئ لن يخرج أبدًا من هناك قبل أن يؤدّي آخر ربع فلس عليه لكونه يحمل وزر الخطيئة الأبديّ التي ارتكبها على الأرض. ولستُ أقول هذا لكي أظهر وكأنّي أقطع الطريق أمام نقاش حول ما يترتّب على الخطايا من عقابات أو أعفي من البحث في ما يُسمّيه الكتاب قصاصًا أبديًّا. أمّا بعد فالأفضل تجنّبها ولا التعرّف إليها.

٣١- فلنرَ الآن من هو الخصم الذي نؤمَرُ بأن نصالحه، بسرعة، ما دمنا نحن في الطريق. إمّا أن يكون الشيطان أو الجسد أو الله أو وصيّته. ولكنّني لست أرى كيف نستطيع أن نأتمر بالطاعة؛ ولكنّي لست أرى كيف يمكننا أن نقبل بالطاعة للشيطان أي بأن نحالفه لأنّ بعضهم قد ترجم اللفظة اليونانية Lunon (بالمتسامح) وبعضهم الآخر بالمتصالح على أنّه لا أحد يستطيع أن يطلب منّا بأن نكون لطفاء مع الشيطان لأنّ اللطف يفترض الصداقة ولا أحد يستطيع أن يقول بمصادقة الشيطان كما لا يمكننا أن نصالحه أو أن نكون على اتّفاقٍ معه؛ وما دمنا قد قطعنا كلّ علاقة به، فقد أعلنّا عليه الحرب، ولن ننال إكليل الظفر إلّا بعد أن ننتصر عليه؛ ولا نستطيع أن نوافقه على أيّ شيءٍ يطلبه منّا لأنّنا ما رضخنا له البتّة؛ ولو لم نكن قد وافقنا على ما يطلبه منّا، لما كنّا قد وقعنا في مثل تلك البلايا. أمّا بشأن الإنسان، وإن طُلب منّا أن نسالم الجميع، بقدر ما أمكن، فنعيش اللطف والتوافق والسلام، فلست أرى، مع ذلك، كيف يستطيع الإنسان أن يسلّمنا إلى القاضي حين أعرف أنّ المسيح هو هذا القاضي الذي ينبغي، كما يقول

الرسول: «أن نمثل أمام منبره» (٢ كور ٥: ١٠). وعليه، فكيف لمن يجب عليه أن يمثل معنا أمام القاضي أن يسلّمنا إليه؟ إن كان لإنسان معيّن أن يمثل أمام القاضي لكونه ألحق الضرر بإنسان آخر، وإن لم يكن بواسطة الإنسان المتضرّر، فمن الطبيعيّ أن نقول بأنّ المجرم قد اقتيد إلى القاضي بموجب الشريعة ذاتها التي خالفها بإلحاق الأذى بالآخر. إذن، إن قتل إنسان إنسانًا آخر، فلن يبقى من مجال لتدبير الأمر معه لأنّه لم يعد حيًّا وتاليًا لم يعد معه في الطريق؛ ومع ذلك يمكنه أن يشفى إذا ندم وتاب ولجأ بقلب سحقه الألم بصحبة المغدور مسترحمًا بقلب سحقه الألم إلى رحمة ذاك الذي يغفر الخطايا للتائبين إليه والذي يفرح بعودة خاطئ إليه أكثر من فرحه بتسعين بارّ (لوقا ١٥: ٧). ولست أدري كيف يطلب منّا أن نساير الجسد أو أن نصالحه؛ لأنّ الخطأة هم الذين يحبّون أجسادهم، يسايرونها وينفّذون أوامرها؛ أمّا أولئك الذين يستعبدونها فما أبعدهم عن الاستسلام إليها؛ إنّهم يفرضون عليها الخضوع والطاعة.

٣٢- وقد يأمروننا بالتوافق مع الله وبمصالحته بعد أن ابتعدنا عنه بارتكابنا الخطيئة، حتّى لقد يقال عنه إنّه خصمنا لأنّ من يقاوم جماعةً يُعتبر لها خصمًا «لأنّ الله يقاوم المتكبّرين ويهب المتواضعين نعمه» (يعقوب ٤: ٦)؛ «والكبرياء هي أولى الخطايا وأوّل كبرياء الإنسان ارتداده عن الله» (يشوع بن سيراخ ١٠: ١٤-١٥) ويقول الرسول: «فإنّه، إذ كنّا أعداء الله، قد صالحنا بموت ابنه؛ فكم بالحريّ ونحن مصالحون، نخلص بحياته» (رومية ٥: ١٠)؛ إستنادًا إلى ما تقدّم ذكره يمكننا أن نستنتج أنّه ما من طبيعة بشريّة تعادي الله طالما أنّ الذين كانوا له أعداء قد تصالحوا معه. إذن، كلّ من لا يزال على الطريق، أي في هذه الحياة، ولم يصالح الله من خلال موت ابنه، فسوف يسلّمه الله إلى

القاضي «لأنّ الله لا يدين أحدًا بل أعطى الحكم كلّه للابن» (يوحنا ٥ : ٢٢). بعد ذلك، يأتي كلّ ما كتب في هذا الفصل وعرضناه سابقًا؛ إنّما يبقى أمرٌ واحد قد يناقض شرحنا وهو كيف نستطيع أن نقول منطقيًّا إنّنا مع الله في هذه الحياة إن كان علينا أن نعتبره الخصم الذي تجب علينا مصالحته في القريب العاجل؟ إلّا إذا أجبنا بأنّ الله الموجود في كلّ مكان يغطّي حتمًا وجودنا على حدّ قول صاحب المزامير: «إن صعدت إلى السماء فأنت هناك وإن اضطجعت في الجحيم فأنت حاضر، وإن اتّخذت أجنحة الصبح وسكنت أقاصي البحر فهناك أيضًا يدك تهديني ويمينك تمسكني» (مزمور ١٣٨ : ٨-١٠). أمّا إذا تنزّهنا عن القول إنّ الله مع الأثمة مع أنّ الله هو في كلّ مكان ولم نقل بأنّ العميان هم مع النور بينما النور يغمر عيونهم. يبقى علينا أن نقول هنا إنّ وصيّة الله نهي الخصم. إذن، من ذا الذي يقاوم من يريدون أن يخطأوا كما تقاومهم وصيّة الله أي شريعته والكتاب الإلٰهيّ الذي أعطيناه رفيقًا لنا في الحياة فلا يجوز لنا أن نخالفه في مسيرتنا المشتركة بل، بخلاف ذلك، يجب علينا أن نسرع إلى التوافق معه خوفًا من أن يسلّمنا إلى القاضي؟ لا أحد يعرف ساعة يغادر هذه الحياة. ومن ذا الذي يسرع إلى التوافق مع الكتب الإلهيّة إلّا ذاك الذي يقرأها ويصغي إليها بتقوى، ويُقرّ بسلطانها المطلق فلا يرفض ما لا يفهمه وإن رأى فيه ما يشجب خطاياه بل يرضى باللوم ويبتهج بمن يأبى المساومة على أمراضه قبل شفائه منها؛ كما وأنّه لا يعترض على النصوص التي تبدو غامضة أو فظّة بل يطلب فهمها مع محافظته على الخضوع التامّ والاحترام للسلطة العليا التي ترعاها. على أنّ من ينهج ذاك النهج، أليس هو الذي يُقبل بدعة وورع، بعيدًا عن كلّ مرارة وتهديد، ليفتح وصيّة أبيه ويتعرّف إليها؟ إذن، «الطوبى للودعاء لأنّهم سيرثون الأرض» علينا أن نتابع!

الفصل الثاني عشر

٣٣- سمعتم أنّه قيل للأوّلين: «لا تزنِ، أما فأقول لكم أنّ كلّ من نظر إلى امرأة لكي يشتهيها فقد زنى بها في قلبه» (متى ٥: ٢٧-٢٨). إذن، البرّ الأدنى يقوم على الامتناع عن الزنى بجسد؛ أمّا البرّ الأسمى فيقوم على الامتناع عن الزنى بالقلب؛ إذ إنّ من لا يزني في قلبه يحفظ نفسه بسهولة عن الزنى بالجسد. وعلى هذا النحو فإنّ من أمر بالوصيّة الأولى قد عزّزها بالثانية لأنّه لم يأتِ ليبطل الشريعة بل ليكمّلها. ولا شكّ في أنّ الإنسان يجب عليه أن يلاحظ أنّه ما قال: «كلّ من اشتهى امرأة بل من نظر إلى امرأة ليشتهيها» أي بنيّة الشهوة ولم يعد الأمر مجرّد شعور بل المقصود إطلاق العنان للشهوة الجامحة بحيث لا تُكبح اللذّة المحرّمة بل السعي إلى إشباعها إن سنحت الفرصة.

٣٤- أمور ثلاثة يجب أن تتوافر، قيامًا للخطيئة؛ وهي: الإيحاء والتلذّذ والرضى. يصدر الإيحاء عن الذاكرة أو عن الحواسّ أي النظر والسمع والشمّ والذوق واللمس. إذا أفضى التلذّذ إلى المتعة أصبح كبح اللذّة واجبًا لأنّ اللذّة أثيمة. مثلًا عندما نكون صائمين ويثير منظر الطعام شهيّتنا من دون أن ننقاد إليها ونخضعها لسلطان العقل. أمّا إذا رضينا تتمّ الخطيئة ويراها الله في باطننا وإن بقيت خافية على الناس. تلك هي الدرجات الثلاث: فالإيحاء يظهر بشكل حيّة، إن صحّ التعبير؛ يزحفُ ويتلوّى تحت تأثير حركة الأجساد العابرة حتّى إذا ظهرت في النفس هذه الصور أو سواها وقد أتت من الخارج، من عالم الجسد، وإذا ما اضطربت النفس تحت تأثير حركة خارجيّة لا علاقة لها بالحواسّ الخمس عُدَّت شهوانيّة وعابرة وبقدر ما تتّصف بالسرّية في احتلال الفكر، بقدر ذلك يصحّ تشبيهها بالحيّة. إنّ الشروط الثلاثة التي

ذكرتها في بداية كلامي موجودة في الحدث الذي يرويه سفر التكوين: الإيحاء وبعض الإقناع تمثّلهما الحيّة والتلذّذ بالشهوة الجسديّة يتمثّل بحوّاء يبقى قبول العقل على آدم. بعد هذا كلّه يطرد الإنسان من الفردوس، أي من النور الطوباويّ الذي للبرّ، إلى الموت، بعدلٍ، لا تشوبه شائبة (لا غبار عليه) لأنّ النصح ليس إكراهًا. وكلّ شيء في طبيعته جميل كما في درجته ومقامه إنّما لا يجوز النزول من النظام الأسمى حيث للنفس مقامها إلى النظام الأدنى؛ ولا إكراه في ذلك على الإطلاق. أمّا كلّ من يقوم به فالله يعاقبه، بعدلٍ لكونه يفعل ذلك بملء حرّيّته. قبل ذلك، وقبل أن تكتسب العادة فاللذّة معدومة أو ضئيلة جدًّا. وكأنّها غير موجودة؛ إنّما الرضى بها أمرٌ غير مشروع ويكوّن خطيئة كبيرة. القبول باللذّة حرام ويعتبر خطيئة كبيرة. إنّ الإنسان يأثم في قلبه حينما يرضى باللذّة. أمّا إذا تمّ الفعل في الخارج فتبدو الشهوة وكأنّها قد أشبعت وأخمدت؛ إنّما يعود الإيحاء ويتكرّر وتضطرم اللذّة أكثر فأكثر. وتكون أخفَّ حين يتكرّر الفعل فتصبح عادة ويصبح قهر العادة صعبًا جدًّا؛ غير أنّ الانتصار على العادة ممكن إذا عاد الإنسان إلى الله واستعان به باستمرار ولم يتراجع أمام النضال الذي يُعرف به المسيحيّ المؤمن. إنطلاقًا ممّا تقدّم فإنّ الرجل الذي يخضع للمسيح والمرأة التي تخضع لرجلها يستعيدان سلامهما الغابر كما جاء على لسان رسول الأمم: «إنّ المسيح رأس كلّ رجل والرجل رأس كلّ امرأة والله رأس المسيح» (١ قور ١١: ٣)، «لأنّ الرجل رأس المرأة كما أنّ المسيح رأس الكنيسة التي هي جسده وهو مخلّصها...» (أفسس ٥: ٢٣).

٣٥- وكما أنّ الوصول إلى الخطيئة يتطلّب درجاتٍ ثلاثًا: أي الإيحاء والتلذّذ والرضى، كذلك فإنّ الخطايا على ثلاثة أنواع: خطيئة

القلب وخطيئة الفعل وخطيئة العادة وكأنّها ميتات ثلاث: تتمّ الأولى في البيت، إن جاز التعبير، حين يرضى القلب بالشهوة وتحصل الثانية عندما تجتاز، نوعًا ما، العتبة وتظهر في الخارج فيتمّ الإنسانُ حرًّا الفعل الخارجيّ؛ أمّا الثالثة فهي التي تحصل حين تبدو النفس مسحوقة تحت عنف العادة وثقل التراب؛ وقد فاحت منها نتانة القبر. كلّ من يقرأ الإنجيل يعرف أنّ الربّ قد أقام أمواتًا قضوا بتلك الميتات الثلاث. وقد نلاحظ الفرق في كلام يسوع الذي يقول في بداية الأمر: «يا صبيّة قومي» (مرقس ٥: ٤١) ثم قوله: «أيّها الشابّ لك أقول: «قم»» (لوقا ٧: ١٤). وأخيرًا: «فارتعشت روحه واضطرب وصاح بصوت جهوريّ: «لعازر، هلمّ، اخرج»» (يوحنا ١١: ٣٣، ٣٥ و٤٣).

٣٦- وعلى هذا النحو فإنّنا نفهم، إذن، بالزنى المذكور في هذا الفصل، كلّ شهوة جسديّة ومنحرفة وفي الواقع عندما يسمّي غالبًا الكتاب المقدّس عبادة الأصنام زنى وعندما يسمّي بولس الرسول البخل عبادة أوثان (كولوسي ٣: ٥) (أفسس ٥: ٥)، فمن ذا يشكّ في أنّه يحقّ لنا أن نسمّي زنى كلّ شهوةٍ أثيمة حين تحتقر النفس الشرائع السامية التي تسوسها فتنزلق في الرذيلة وترتكب أشياء دونها قدرًا؛ فتتدنّس إشباعًا للذّة مشينة؟ إذن، على كلّ من يشعر بأنّ اللذّة الجسديّة تثور فيه ضدّ الإرادة الصالحة بفعل عادة الخطيئة التي تصيّره بقدرتها الجامحة، عبدًا، أجل، حينذاك عليه أن يتذكّر السلام الذي فقده بالخطيئة التي أصبحت فيه عادة وليصرخ: «يا لي من إنسان شقيّ، من لي بمن ينقذني من جسد الموت هذا؟ إنّها نعمة الله بيسوع المسيح» (رومية ٧: ٢٤-٢٥)، لأنّه إذ يعلن شقاءه على ذلك النحو يستجدي باكيًا غوث المعزّي. إنّ الاعتراف بما هو عليه من حقارة لا يعتبر تقدّمًا

زهيدًا نحو السعادة. وأيضًا «فالطوبى للباكين لأنّهم سيعزّون» (متى ٥ : ٥).

الفصل الثالث عشر

٣٧- حينئذٍ تابع السيّد قائلًا: «فإن شكّكتك عينك اليمنى فاقلعها وألقها عنك! فإنّه خيرٌ لك أن يهلك أحد أعضائك ولا يُلقى جسدك كلّه في جهنّم» (متى ٥ : ٢٩). إنّ بتر الأعضاء يتطلّب شجاعة كبيرة. أيًّا يكن معنى كلمة العين هنا فإنّه يشير بالتأكيد إلى ما هو عزيز جدًّا على الإنسان. وفي الواقع إن أردنا أن نعبّر عن محبّتنا الشديدة لإنسانٍ نقول فيه كعادتنا: أحبُّه كعينيَّ أو نغالي قائلين أكثر من عينيَّ. وإن قلنا كعيني اليمنى فلكي نؤكّد أيضًا حبًّا أشدّ وأعمق؛ لأنّنا وإن كنّا نستعمل عادة عينينا الجسديّتين الاثنتين للنظر وكلتاهما تتمتّعان بتلك الميزة، مع ذلك، يبقى الخوف من خسارة العين اليمنى أشدّ وقعًا على الإنسان من خسارة اليسرى. فالمقصود، إذن، أيًّا يكن ما تحبّه سبب عثرةٍ لك، وإن يكن كحبّك لعينك اليمنى فاقتلعه وألقه بعيدًا عنك؛ لأنّه من الأفضل لك أن يهلك ما هو عزيز عليك كأحد أعضائك، من أن يُلقى جسدك كلّه في جهنّم.

٣٨- وكما اضطررنا إلى التدقيق في ما يقصد بالعين اليمنى نرى في ما يقول وبالمعنى ذاته عن اليد اليمنى. «وإن شكّكتك يدك اليمنى فاقطعها وألقها عنك؛ لأنّه خير لك أن يهلك أحد أعضائك من أن يلقى جسدك كلّه في جهنّم» (متى ٥ : ٣٠). في هذا المجال لست أجد كلامًا أقوله أفضل من هذا وهو أنّ العين تعني الصديق الأعزّ؛ لأنّنا في ذلك القول نستطيع أن ندعو عضوًا عزيزًا، مستشارًا لدينا، أشبه بالعين التي

تدلّنا على الطريق؛ إنّه مستشار في الأمور الإلهيّة لكونه العين اليمنى. أمّا العين اليسرى التي هي أيضًا مستشار ينصح ويشير إلينا بما هو أرضيّ، بكلّ ما يختصّ بحاجات الجسد؛ على أنّه لم تكن بنا حاج إلى التكلّم على هذا الأخير في حالة الشكّ ما دمنا لا ندري كيف نصون العين اليمنى. بيد أنّ المستشار يحملنا على أن نشكّ في الأمور الإلٰهيّة حين يسعى بنا إلى هرطقةٍ خبيثة تحت ستار الدين والعقيدة. وانطلاقًا من ذلك، علينا أن نعرّف باليد اليمنى أنّها المعاون المحبوب، العامل في سبيل الأمور الإلٰهيّة؛ فكما أنّ العين هي العضو الذي به نرى كذلك هي اليد أداة العمل، وباليد اليسرى تتأمّن لنا الأشياء الضروريّة لحاجات الجسد في هذه الحياة.

الفصل الرابع عشر

٣٩- «لقد قيل للأقدمين: على من طلّق امرأته أن يعطيها كتاب طلاق» (متى ٥: ٣١)؛ ذاك هو برّ الفرّيسيّين الأدنى الذي لم ينقضه الربّ، مضيفًا: «أمّا أنا فأقول لكم: من طلّق امرأته لغير علّةِ زنًى، جعلها زانية ومن تزوّج مطلّقة زنى» (متى ٥: ٣٢). إنّ من أوصى بإعطاء كتاب طلاق لم يوصِ بالطلاق لأنّه حين يقول: «على من طلّق امرأته أن يعطيها كتاب طلاق»، بل يسعى إلى التخفيف بكتاب الطلاق من غضب الرجل اللاواعي الذي يعرف امرأته؛ وإنّ المشترع ليخلق بتلك الطريقة مهلةً يسعى جهده، من خلالها، مع ذوي العقول الغليظة، لكي يُفهمهم، بقدر ما يستطيع، أنّه لا يوافق على الطلاق. والربّ نفسه أجاب حين طُرحت عليه تلك المسألة: «لقساوة قلوبكم أجاز لكم موسى طلاق نسائكم» (متى ١٩: ٨). على أنّه، مهما بلغت قساوةُ من

يسعى إلى طلاق زوجته فقد يراوده شعور أرقّ حين يفكّر أنّه إن سلّمها كتاب طلاق تصبح قادرة، بلا صعوبة، على أن تتزوّج من آخر. وتأكيدًا لصعوبة الطلاق، لم يرضَ الربّ بغير علّة الزنى سببًا للطلاق. أمّا المحاذير الأخرى، إن وُجدتْ، فالربّ يدعو إلى قبولها بجرأة، حفاظًا على العهد الزوجيّ والعفّة؛ وإنّه ليعتبر زانيًا كلّ من يتزوّج مطلّقة وإن كانت قد حُلّت من زواجها الأوّل. ويرى بولس الرسول أنّ العهد بين الزوجين يبقى قائمًا ما دام الزوج حيًّا؛ ولا يحلّ لها أن تتزوّج من آخر إلّا إذا مات زوجها (رومة ٧: ٢-٣). وفي الواقع، إنّه يرعى تلك القاعدة ويقول بها كأمر صريح من الربّ وليست نصيحةً منه كما يفعل في بعض المناسبات: «أمّا المتزوّجون فآمرهم، لا أنا، بل الربّ، ألّا تفارق امرأة رجلها؛ فإن فارقته، فلتَبقَ عازبة، أو فلتصالح رجلها؛ وألّا يصرف الرجل امرأته» (١ قور ٧: ١٠-١١). وأظنّ أنّه يجب القول بشأن الرجل أيضًا: عليه ألّا يتّخذ امرأة أخرى عندما يطلّق امرأته بل فليتصالح معها؛ إذ قد يحدث له أن يطلّق، لعلّة الزنى بحسب الاستثناء الذي وضعه الربّ؛ إن كان لا يُسمح للمرأة بأن تتزوّج ثانية وزوجها الأوّل على قيد الحياة ولا للرجل بأن يتّخذ امرأة أخرى بينما لا تزال مطلّقته على قيد الحياة، فالأولى به ألّا يقيم علاقة مشينة بأوّل طارق باب. ولكن يجب أن يُعتبر الزوجان أكثر سعادة، سواءٌ أأنجبا أولادًا أم امتنعا، برضى متبادل، صونًا لعفّتهما، عن الإنجاب؛ وهو لا يناقض البتّة تحريم الطلاق؛ وليسا من الطلاق على شيء إذا عاشا في علاقة روحيّة، لا جسديّة، وظلّا وفيّين، لقول الرسول: «وعليه، فليكن الذين لهم نساء كمن لا نساءَ لهم» (١قور ٧: ٢٩).

الفصل الخامس عشر:
إنّ من لا يكره الأشياء الزائلة لا يحبّ الحياة الأبديّة

٤٠- أهمّ ما يقلق نفوس الضعفاء الراغبين في أن يحيوا بحسب وصايا المسيح، هو ما يقوله الربّ نفسه في موضع آخر: «كلّ من يأتي إليّ ولا يبغض أباه وأمّه وامرأته وبنيه وإخوته وأخواته، بل نفسه، فلا يستطيع أن يكون لي تلميذًا (لوقا ١٤: ٢٦). إنّ قليلي الفهم يظنّون أنّ في ذلك القول تناقضًا. يَنهى الربّ، من جهة، عن الطلاق لغير علّة الزنى ومن جهة أخرى يقول إنّ من يحبّ امرأته أكثر منه لا يستطيع أن يكون له تلميذًا. لو أنّه أراد أن يتكلّم على الاتّحاد الجسديّ لما ذكر في المقام نفسه الأب والأمّ والزوجة والأولاد والإخوة. صحيح أنّ ملكوت السماوات يُغتصب اغتصابًا والمغتصبون هم الفائزون به (متى ١١: ١٢)، فيا له من عنفٍ يجب على الإنسان أن يمارسه على ذاته لكي يحبّ أعداءه ويبغض أباه وأمّه وأولاده وإخوته! إنّ الذي يدعونا إلى ملكوت السماوات يأمرنا بالاثنين معًا! بمساعدته يسهل البرهان على أنّ هاتين الوصيّتين لا تتناقضان؛ إنّما يصعب العمل بهما بعد أن تُفهما على الرغم من أنّ معونة الله لنا تجعل ممارستهما سهلة جدًّا. إنّ الملكوت الأزليّ الذي يدعو المسيح تلاميذه إليه فيسمّيهم إخوة لا يعرف أبدًا علاقات القربى الزمنيّة المعهودة حيث «لا يهوديّ ولا يونانيّ، لا عبد ولا حرّ، لا ذكر ولا أنثى ولكن المسيح هو الكلّ في الكلّ» (غلاطيّة ٣: ٢٨) (قولوسي ٣: ١١). والربّ نفسه يقول: «لأنّهم في القيامة لا يزوّجون، ولا يتزوّجون ولكن يكونون كملائكة الله في السماوات» (متى ٢٢: ٣٠)، فعلى من يريد انطلاقًا من هذا العالم أن يستعدّ لأن يحيا في السماء، أن يبغض، لا الناس أنفسهم، بل تلك

العلاقات والرُبُط الزمنيّة التي تقوم عليها هذه الحياة العابرة، القائمة بين الولادة والموت وكلّ من لم يبلغ ذلك الحدّ فلا يُحبّ الحياة الأخرى حيث تزول الولادة والموت، ثمار الزواجات الأرضيّة.

٤١- حين أسأل مسيحيًّا أصيلًا متزوّجًا وله أولاد إن كان يريد زوجة له في الملكوت السماويّ فيتذكّر إذ ذاك وعود الله المتّصلة بالحياة الأخرى حيث لا بدّ من أن يلبس هذا الجسد الفاسد عدم الفساد وهذا المائت عدم الموت (١ قور ١٥ : ٥٣) ويجيب، خائفًا بلا تردّد، وكأنّه معجب بتلك السعادة نوعًا ما، بأنّ لا رغبة له البتة في ذلك؛ وإن سألته عمّا إذا كان يرغب في أن تعيش معه بعد القيامة من هي امرأته الآن بعد أن يصير التحوّل السماويّ الذي وُعِد به القدّيسون فسوف يجيبني بالحيويّة نفسها بأنّ ذاك هو جلّ مبتغاه. وعلى هذا النحو فإنّ المسيحيّ الصالح يحبّ في امرأته خليقة الله ويرغب في أن يراها تتحوّل وتتجدّد ويكره في الوقت عينه الاتّحاد الذي ينتهي بالموت، العلاقة الجنسيّة، أي أنّه يحبّ ما بها من إنسانيّة ويكره ما هو جنسيّ. وعلى هذا النحو يحبّ عدوًّا، لا كعدوّ، بل كإنسان؛ فيريد له ما يريده لنفسه، ليبلغ الصلاح فيتجدّد ويبلغ ملكوت السماوات. وذاك ما يقال أيضًا في الأب والأمّ وفي كلّ من يتّصلون بنا بقربى الدم الذين يجب أن نكره فيهم حتميّة الولادة والموت التي تجري على كلّ إنسان، ونحبّ ما يوصلهم معنا إلى الملكوت السماويّ حيث لا أحد يقول أبي بل كلّنا نقول أبانا (متى ٢٣ : ٩)، ولا أحد يقول أمّي بل الكلّ يدعو أورشليم السماويّة أمًّا (غلاطية ٤ : ٢٦)، ولا أحد يقول أخي بل الكلّ يدعو الجميع إخوة (متى ٢٣ : ٨)، وحيث الزواج يقوم على أن نرى أنفسنا متّحدين بمن سيكون ختننا إن صحّ التعبير (٢ قور ١١ : ٢) هو الذي افتدانا من فساد هذا العالم بسفك دمه. إذن، يجب على تلميذ المسيح

أن يكره ما يزول في من يريدهم أن يصلوا معه إلى ما لا يزول؛ وذلك بقدر ما يحبّهم وأكثر.

٤٢- يستطيع المسيحيّ، إذن، أن يعيش بانسجام تامّ مع امرأته، إمّا لأنّه يجد فيها ما يرضي حاجاته الجسديّة وهذا شيء مسموح به، وإن لم يكن وصيّة بحسب الرسول (١قور ٧: ٣-٦)، أو لأنّه ينجب منها الأولاد وهذا شيء مقبول إلى حدٍّ ما؛ وإمّا لأنّه يعيش معها كأخ من دون أيّ علاقة جسديّة فتكون له زوجة كمن ليست له زوجة (متى ٦: ٢٤). وذلك هو الأفضل والأسمى في الزواج المسيحيّ؛ وفي جميع الحالات إنّه يكره فيها كلّ ما يشدّ به إلى الحاجات الزمنيّة ويهوى فيها رجاء السعادة الأبديّة لأنّنا نكره بكلّ تأكيد ما نرجو أن ينتهي كالحياة في هذا العالم، مثلًا التي لا نريدها أبديّة وبمنأى عن فعل الزمن إن لم نكن لها كارهين، زائلة مع الزمن. تلك هي الحياة التي نعنيها بكلمة نفس في المقطع التالي: «من لم يرغب عن نفسه أيضًا لا يستطيع أن يكون لي تلميذًا» (لوقا ١٤: ٢٦)، لأنّ هذه الحياة تحتاج إلى غذاء يطاله الفساد، يقول فيه الربّ نفسه: «أليست الحياة أكثر من الغذاء؟» (يوحنا ١٢: ٣١)، أي هذه الحياة التي يكوّن الغذاء ضرورة لها. وفي موضع آخر حين يقول إنّه يبذل نفسه عن خرافه يتكلّم على الحياة الحاضرة لأنّه يعلن أنّه سيموت عنّا.

الفصل السادس عشر

٤٣- هنا تبرز مسألة أخرى: عندما يسمح المخلّص بطلاق زوجة لعلّة الزنى، فبأيّ معنى يجب أن نأخذ الزنى؟ هل نأخذه بالمعنى المعروف لدى الناس كعلاقة جرميّة؟ أو كما يطلقه الكتاب غالبًا على

كلّ شهوة أثيمة كعبادة الأوثان مثلًا أو البخل أو أيّ انتهاك للشريعة يصدر عن شهوة أثيمة؟ ولكن، تجنّبًا للشطط، نعود إلى الرسول القائل: «أمّا المتزوّجون، فآمرهم لا أنا، بل الربّ ألّا تفارق امرأة رجلها؛ فإن فارقته فلتبقَ عازبة أو فلتصالح رجلها» (١قور ٧: ١١). وقد يحدث أن تفارقه لما سمح به الربّ؛ أمّا إن سمح للمرأة بأن تفارق زوجها خارجًا عن علّة الزنى، من دون أن يُسمح به للرجل، فبمَ نجيب على ما يقول الرسول بعدئذٍ: «كذلك على الرجل ألّا يفارق امرأته»؟، ولمَ لا يضيف إلّا لعلّة الزنى التي أجازها الربّ؟ إن لم يكن يقصد بأنّ ما ينطبق على الواحد ينطبق على الآخر أيضًا أي إن صرفَ الرجل امرأته لعلّة الزنى فلا يتّخذنّ له امرأة أخرى، أو فليتصالح معها؟ وفي الواقع إنّه ليحسن بالرجل أن يتصالح مع المرأة التي لم يجرؤ أحدٌ على أن يرشقها بحجر والتي قال لها الربّ: «إذهبي واحرصي ألّا تعودي إلى الخطيئة» (يوحنا ٨: ٣-١١). إنّ الذي لم يسمح بأن تصرف المرأة لغير علّة الزنى أمر بالمحافظة عليها في جميع الأحوال حتّى إنّه لم يأمر بصرفها في حالة الزنى بل أجاز ذلك فقط؛ وكذلك فإنّنا نقول بأنّه لا يحقّ لامرأة لا يزال بعلها حيًّا أن تتّخذ لها رجلًا آخر حتّى إن تزوّجت قبل موته خطئت وإن لم تتزوّج بعد موته فهي لا تخطأ من حيث إنّه أجيز لها ولم تؤمر بذلك. وعليه فإن كان من مساواةٍ بين الرجل والمرأة في الحقوق من حيث الزواج فإنّ الرسول لم يكتف بالقول في كلامه على المرأة من حيث الزواج، بل أضاف «ليس للمرأة سلطان على جسدها بل لرجلها» وللرجل قال: «ليس للرجل سلطان على جسده بل لامرأته» (١ قور ٧: ٤)، حتّى إذا كانت القاعدة تسري على الاثنين معًا إذ ذاك يجب ألّا نفهم أنّه يجوز للمرأة من بابٍ أولى أن تصرف رجلها خارج حالة الزنى.

٤٤- إذن، يجب التدقيق في مفهوم الزنى بدءًا باستشارة الرسول الذي يتابع قائلًا: «أمّا للآخرين فأنا أقول، ليس الربّ» (١ قور ٧: ١٢). لنرَ أوّلًا ماذا يعني بالآخرين بعد ما سبق أن خاطب المتزوّجين باسم الربّ؛ أمّا الآن فباسمه يخاطب الباقين وربّما غير المتزوّجين؛ ولكنّه لا يخاطبهم لأنّه يضيف قائلًا: «إذا كان لأخٍ امرأة غير مؤمنة ترتضي مساكنته فلا يصرفها» إذن، هو يخاطب المتزوّجين أيضًا؛ إذ ذاك ما معنى كلمة الباقين أو الآخرين. إن لم يكن أعلاه يخاطب الأزواج المؤمنين بالمسيح وكان الآخرون يمثّلون أزواجًا، أحد الشريكين غير مؤمن فلم يخاطبهم؟ «إن كان لأخ امرأة غير مؤمنة وقد ارتضت أن تساكنه فلا يصرفها. وإذا كان لامرأة مؤمنة زوج غير مؤمن وارتضى أن يساكنها فلا تصرف رجلها. «إن كان لا يوصي من قبل الربّ، بل يشير باسمه، فذاك أمرٌ حسن؛ ويعني أنّ المخالفة ممكنة ولا تعني مخالفة الوصيّة. وبشأن العذارى يقول إنّه لم يتلقّ وصيّة من قبل الربّ بل يعطي مشورة ويمتدح البتوليّة، إنّما عن طريق الاختيار الحرّ من دون أن يشكّل عدم الاختيار إثمًا لأنّ الوصيّة شيء والمشورة شيء آخر والتنازل شيء آخر. تؤمر المرأة بعدم الافتراق عن زوجها حتّى إن قامت به بعدم الزواج ثانية، بل بالمصالحة مع زوجها؛ ولا يجوز لها أن تتصرّف بخلاف ما تقدّم ذكره. ويُنصح الزوج الأمين بألّا يطلّق امرأة خانته وتقبل بالبقاء معه. إنّما يُسمح له بطلاقها ما دمنا أمام مشورة من الرسول ولسنا أمام أمر من الربّ. يُشار على العذراء بعدم الزواج حتّى إذا تزوجت فلا تعمل بمشورة الرسول ولكنّها لا تخالف شريعة الربّ. ومن باب التسامح يقال: «إنّي أقول ذلك من باب الإيثار وليس من باب الوصيّة» وعليه فإن جاز صرف امرأة غير مؤمنة وكان من الأفضل عدم صرفها؛ وإن كان من جهة أخرى، استنادًا إلى وصيّة الربّ، لا يُسمح

بصرف امرأة إلّا في حالة الزنى، إذ ذاك ومن دون أيّ شكّ يجب أن نفهم بالزنى عدم الأمانة.

٤٥- وماذا تقول، إذن، أيّها الرسول القدّيس؟ لا شكّ في أنّك تدعو الزوج الأمين إلى الإبقاء على الزوجة غير المؤمنة وعدم صرفها، إذا قبلت بالسكن معه. ولكن، ما دام الربّ يحرّم على الزوج أن يصرف امرأته إلّا في حالة الزنى فلماذا تقول أنت: «أنا أقول، لا الربّ؟». إنّ عبادة الأوثان التي ينغمس فيها غير المؤمنين كما كلّ خرافة آثمة هي زنى. والحال فإنّ الربّ قد سمح ولم يوصِ بل أتاح للرسول مجالًا بأن يشير بعدم صرف امرأة غير مؤمنة، أملًا منه بأن تصير مؤمنة إذ يقول: «إنّ الرجل غير المؤمن يتقدّس بامرأته المؤمنة والمرأة غير المؤمنة تتقدّس برجلها المؤمن» (١قور ٧: ١٤). وأظنّ أنّه قد سبق لبعض النسوة أن اهتدين إلى الإيمان بفضل أزواجهنّ المؤمنين ولبعض الرجال أن اهتدوا بفضل نسائهم؛ ومن دون أن يعطي أسماء فقد أعطى أمثلة تدعم إرشاداته ومشوراته ثمّ يضيف قائلًا: «وإلّا لكان أولادكم نجسين، والحال أنّهم قدّيسون» (١قور ٧: ١٤) لأنّه قد سبق أن تعمّد أولاد مسيحيّون بقرار من أحد والديهم أو بموافقة الاثنين؛ وما كان ذلك ليصير لو أنّ الزوجين انفصلا لكون أحدهما مؤمنًا والآخر غير مؤمن ولم يتساهل المؤمن مع غير المؤمن حتّى يكون قد اهتدى. تلك كانت نصيحة العشّار إلى صاحب الفندق بقوله له، على ما يبدو لي: «إعتنِ به ومهما تنفق فإنّي أفيك ذلك عند رجوعي» (لوقا ١٠: ٣٥).

٤٦- والحال، إن كان الكفر زنى وعبادة الأوثان كفرًا وكان البخل عبادة أوثان فلا شكّ في أنّ البخل زنى. ولكن، إن كان البخل زنى فمن ذا الذي لا يستطيع بشكلٍ منطقيّ أن يسمّي كلّ شهوة أثيمة زنى؟؟

والنتيجة هي أنّ رجلًا ما يستطيع من دون أن يخطأ أن يطلّق زوجته كما تستطيع الزوجة أن تطلّق زوجها بسبب شهوات أثيمة ليس تلك التي تصدر عن علاقات جنسيّة برجال أو بنساء أجنبيّات فحسب، بل عن كلّ ما يدفع بالنفس إلى أن تخرق الشريعة الإلٰهيّة فتتدنّس لخزيها وهلاكها. والمنطق هو أنّ الربّ يستثني حالة الزنى؛ وإنّ لفظة الزنى كما رأينا سابقًا يجب أن نفهمها بمعناها العامّ والشامل.

٤٧- وحين يقال: «خارجًا عن علّة الزنى»، فالربّ لا يشير البتّة إن كان هذا الزنى قد حصل من جهة الرجل أو من جهة الزوجة. إذ لا يُسمح بصرف المرأة الزانية وحسب، بل كلّ رجل يصرف امرأة تدفعه إلى ارتكاب الزنى فيصرفها لذلك. وعلى سبيل المثال إن فرضت امرأة على زوجها أن يقدّم ذبائح إلى الأوثان فالذي يطلّقها يقوم بذلك لعلّة الزنى، وهو زنى يُنسب إليها لأنّها ارتكبته حقًّا وهو يعدّ زنى مخافة أن يرتكبه هو نفسه. إنّما من الظلم حقًّا أن تُصرف امرأة لعلّة زنى إن كان هو نفسه قد اقتنع به. وتلك هي حال من يقول: «إنّك بما تدين به الآخر، سوف تدين به نفسك، لأنّك تفعل ما به تدين» (رومة ٢ : ١). وعلى هذا النحو فكلّ من أراد أن يطلّق امرأته لعلّة زنى، ألا يكون هو نفسه زانيًا؟ وأقول الشيء ذاته للمرأة.

٤٨- وبناءً على ما قيل: «ومن تزوّج مطلّقة فقد زنى» (متى ٥ : ٣٢)، يمكننا أن نسأل إن ارتكب الرجل الزنى فهل الزوجة أيضًا ارتكبته؟ في الواقع، يفرض على المرأة أن تبقى بدون زواج فتتصالح مع زوجها، إنّما يقول الرسول إن كانت قد انفصلت عنه، لأنّ الفرق كبير بين الفراق والصرف. إن كانت المرأة صرفت هي ذاتها زوجها وتزوّجت من آخر يمكن الاعتقاد أنّها لم تترك الأوّل إلّا لكي تستبدل به

الثاني وتلك، طبعًا، فكرة زنى. وعلى العكس، إن كان زوجها قد صرفها، بعد أن عاشت معه بإرادتها، فالذي يتزوّجها يزني، بشكل أكيد، بحسب قول الربّ: ولكن هل هي حقًّا زانية؟ تلك هي المسألة على أنّنا لا نستطيع أن نتصوّر حقًّا كيف يستطيع رجل وامرأة ارتبطا بزواج أن يكون أحدهما زانيًا والآخر لا؛ فضلًا عن أنّ من تزوّج مطلّقة فقد زنى، حتّى ولو لم تكن تلك المرأة قد انفصلت عن زوجها بإرادتها؛ لأنّها هي التي تجعله زانيًا، وهذا ما يحرّمه الربّ. وفي كلا الحالين، سواءٌ كانت مصروفة عن زوجها، أو كانت هي التي فارقته، فلا يجوز لها الزواج من آخر؛ بل عليها أن تصالح زوجها.

٤٩- والسؤال المطروح هو التالي: هل يُعفى رجلٌ من خطيئة الزنى إن تزوّج امرأة ليست متزوّجة من آخر وليست مطلّقة إذا سمحت له زوجته بذلك، إمّا لأنّها عاقر أو لأنّها ترفض التقيّد بالواجب الزوجيّ؟ وإنّنا لنجد مثالًا عن ذلك في العهد القديم (إبراهيم وسارة سفر التكوين ١٦ : ١-٣). أمّا القوانين الحاليّة التي اكتفى الأقدمون بإعداد الجنس البشريّ لقبولها فهي أسمى وأرفع؛ ولهذا يجب التطلّع إلى الفرق ما بين الأزمنة وما ترسمه العناية الإلهيّة التي تتدخّل، في الظرف المناسب، لخلاص الناس وألّا نبحث فيها عن قواعد السلوك. ولكن، هل يُفهم من كلام الرسول القائل: «ليس للمرأة سلطان على جسدها، بل لرجلها ولا للرجل سلطان على جسده بل لامرأته» (١قور ٧ : ٤) أنّه إذا سمحت المرأة صاحبةُ السلطان على جسد رجلها، يحقّ له، إذ ذاك، أن يتّحد جسديًّا بامرأة أخرى غير متزوّجة أو غير منفصلة عن زوجها؟ ذاك ما لا يجوز التفكير فيه خوفًا من أن تعطى المرأة ذلك الحقّ بموافقة زوجها؛ وذاك ما يصدم الشعور العامّ فيأباه.

٥٠- قد تطرأ ظروف تضطرّ فيها المرأة بموافقة زوجها ولمصلحته

إلى القيام بذلك. ويُروى عن حادث، من هذا النوع، جرى في أنطاكية منذ خمسين سنة تقريبًا في عهد الملك كونستانس، وهو أنّ الوالي أسنديونس Acyndinos كان يطالب أحد المدينين لبيت المال بذهبيّة فاندفع تحت وطأة الشعور بالتسلّط بحكم مركزه، حيث كلّ شيء مجاز أو يُخيَّل له هكذا، وراح يهدّد المدين بالسجن إن لم يدفع المبلغ في اليوم المعيّن كما توعّده بالموت. وإذ كان ذلك المسكين مغلق عليه في سجن ضيّق، عاجزًا عن تسديد دينه، وكانت له زوجة جميلة جدًّا إنّما معدمة لا تقوى على مدّ يد العون إلى زوجها، إذا برجلٍ ثريٍّ استهواه جمالها فراح يعرض عليها دفع الدين عن زوجها مقابل ليلة واحدة تستسلمُ فيها له. وإذ كانت تعلم أنّ الحقّ المطلق على جسدها هو لرجلها قبلت بطلبه، شرط أن يقبل به زوجها، صاحب السلطان عليها، حفاظًا على حياته. وإذ تمّت الموافقة من قبل الزوج، من دون التفكير في الزنى لأنّ الشهوة ليست الدافع بل المحبّة الزوجيّة المتبادلة، راحت المرأة إلى بيت الغنيّ في الريف راضية بما أراده ذلك الغنيّ الفاجر بعد موافقة زوجها وتمّت المقايضة؛ إلّا أنّ الذي سلّمها إيّاه لم ينفعها لكونه غافلها بسرعة واستردّه واستبدل به كيسًا مماثلًا فيه تراب. وإذ وصلت إلى بيتها وأدركت ما تعرّضت له من سرقة انطلقت إلى الساحة العامّة، حبًّا بزوجها، وأعلنت على الملأ ما أرغمت على القيام به، حبًّا بزوجها، واعترفت أمام والي المدينة بكلّ ما جرى وما وقعت له ضحيّة؛ إذ ذاك اعترف الوالي بذنبه وبما سبّبت تهديداته من شرور وقضى على نفسه كما يقضي على أيّ شخص آخر مذنب بأن يدفع من ماله الخاصّ الذهبيّة المتوجّبة لبيت المال وأصدر الأمر في الوقت عينه بأن تتملّك المرأة الأرض التي أخذ منها التراب ليستبدل به الذهب. أنا لستُ هنا لأناقش في هذا الاتّجاه أو في ذلك؛ وعلى كلّ واحد أن

يحكم بما يراه حقًّا لأنّ القصّة لم تؤخذ من مصادر إلٰهيّة؛ إلّا أنّ الإنسان بعد سماعه هذه الرواية لن يشعر، تجاه ما قامت به المرأة والذي ارتضاه زوجها، بما قد يكون به، لو أنّ المسألة قد طرحت من دون مثل؛ إنّما الذي يُستنتج، بنوع خاصّ، من مقطع الإنجيل هذا، هو فظاعة خطيئة الزنى التي يبنى عليها الاستثناء الوحيد بفكّ عرى وثاق الزواج الوثيقة على أنّنا قد سبق أن قلنا ما هو الزنى.

الفصل السابع عشر: في الحلف

٥١- وها هو يقول ثانيةً: «لقد سمعتم أيضًا ما قيل للأوّلين: «لا تحنث بيمينك. بل أوفِ الربّ بأقسامك. أمّا أنا فأقول لكم: لا تحلفوا أبدًا، لا بالسماء فإنّها عرش الله، ولا بالأرض فإنّها موطئ قدميه، ولا بأورشليم فإنّها مدينة الملك الأعظم. ولا برأسك فإنّك لا تقدر على أن تجعل شعرة منه بيضاء أو سوداء. ليكن كلامكم نعم، نعم، ولا، لا. فما زاد على ذلك فهو من الشرّير» (متى ٥: ٣٣-٣٧). إنّ برّ الفرّيسيّين يقوم على عدم الحنث باليمين ويتحصّن بتحريم القسَم وهو البرّ الخاصّ بملكوت السماوات؛ وكما أنّ من لا يتكلّم لا يستطيع أن يغلط في كلامه، هكذا من لا يحلف لا يسعه أن يحنث بيمينه. ومع ذلك فيما أنّ القسم يتّخذ الله شاهدًا، علينا أن نتفحّص جيّدًا هذه المسألة كيلا يظهر الرسول ناقضًا أحكام الربّ، هو الذي غالبًا ما يُقسم على هذا النحو قائلًا: «وما أكتب إليكم فأمام الله أكتب لأنّي لا أكذب» (غلاطية ١: ٢٠)، وأيضًا: «إنّ إلٰه الربّ يسوع وأباه، تبارك إلى الأبد، عالمٌ بأنّي لا أكذب» (٢ قور ١١: ٣١)، ويقول أيضًا في موضع آخر: «يشهد عليّ الله الذي أعبد بروحي، في إنجيل ابنه، كيف أذكركم بلا انقطاع في

صلواتي» (رومة ١ : ٩-١٠)، ربّ إنسانٍ يقول إنّه لا ينبغي النظر كقسم إلّا إلى ما كان حلفًا صريحًا، زاعمًا أنّ عبارة «الله شاهد على ما أقول»، هي غيرها: «أقسم بالله!». إنّه لقولٌ يدعو إلى السخرية. ولكن، تجنّبًا لأيّ جدالٍ واحترامًا لمن هم أقلّ تبصّرًا، ويتمسّكون برأيهم، القائل بوجود فرق ما بين التعبيرين، يُستحسن أن نعلم بأنّ الرسول استخدم هذا الشكل من القسَم حين قال: «أقسم أنّي أموت كلّ يوم بالفخر الذي لي بكم في المسيح ربّنا» (١قور ١٥ : ٣١)، ولئلّا نتوهّم بأنّه أراد أن يقول: «إنّ فخري بكم يميتني» كما يقال: لقد أصبح فلان عالمًا بفضل ما درس على فلان، أي أنّ ما درسه على هذا جعله عالمًا فقد جاءت النسخ اليونانيّة لتفصل في الأمر لأنّنا نقرأ فيها: Ne ten kankhesin umatiran، وهي عبارة لا تستخدم إلّا في القسَم وانطلاقًا ممّا تقدّم يجب أن ندرك أنّ الربّ حرّم القسم لئلّا يميل المرءُ إليه، على أنّه حسن، فيروح يحنث بيمينه بفعل ما تعوّد على القسم. على من عرف أنّه لا يجوز اعتبار القسم عملًا جيّدًا بل كضرورة أن يقلّل منه، ما استطاع؛ ولا يستخدمه إلّا عند الضرورة، حين يرى أنّ الناس غير مستعدّين كما يلزم لأن يصدّقوا أمرًا ما يجنون منه خيرًا لهم، ما لم يقترن تأكيده بالقسم. بذاك المعنى يجب فهم عبارة: «ليكن كلامكم نعم، نعم، ولا، لا!». ذاك هو الخير، ذاك هو المبتغى المنشود! «وما زاد على ذلك فهو من الشرّير». إعلموا، إذا اضطررتم إلى القسم، أنّ ذاك ناتجٌ من ضعفٍ في من تريدون إقناعهم؛ وذاك الضعف هو، بكلّ تأكيد، شرٌّ، نطلب كلّ يومٍ أن نتخلّصَ منه، حين نقول: «نجّنا من الشرّير» (متى ٦ : ١٣)، بيد أنّ الربّ لم يقل: «وما زاد على ذلك فهو شرّ»، بل إن اضطررتم إلى القسم فلستم تفعلون شرًّا؛ لأنّه، إن لم يكن حسنًا، يظلّ ضروريًّا مع ذلك، لكي يُقنع الآخرين بحقيقةٍ أخرى نافعة.

بل قال: «يأتي من الشرّير» أي من ضعفٍ في من تضطرّون إلى الحلف من أجله. وحده الذي اختبر الأمر يعرف صعوبة الإقلاع عن عادة القسم وعدم القيام، بلا سبب، بما تفرضه الضرورة أحيانًا.

٥٢- يستطيع الإنسان أن يطرح سؤالًا حول العبارة التالية: «أمّا أنا فأقول لكم: لا تحلفوا، أبدًا، ويليها: «لا بالسماء فإنّها عرش الله... ولا برأسك» (متى ٥: ٣٤-٣٦)، لأنّ اليهود، على ما أظنّ، ما كانوا يعتقدون أنّهم مرتبطون بإيمانهم عندما يحلفون بتلك الأشياء. كما وأنّهم عندما كانوا يسمعون: «إحفظ للربّ إيمانك» (متى ٥: ٣٣)، ما كانوا يعتقدون أنّهم يخالفون الوصيّة عندما يحلفون بالسماء أو بالأرض أو بأورشليم أو برأسهم، لا لخطأ في المشترع بل لسوء فهمهم. إنّ الربّ يعلّمهم إذن أن ليس في الخليقة ما هو قبيح إلى حدّ أنّك تستطيع أن تحلف به باطلًا ما دامت العناية الإلهيّة تحكم الكون بكامله من أعلى إلى أسفل، بدءًا من عرش الله إلى الشعرة البيضاء أو السوداء: «لا تحلفوا بالسماء، فإنّها عرش الله ولا بالأرض فإنّها موطئ قدميه» أي عندما تحلفون بالسماء أو بالأرض لا تتوهّموا بأنّ قسَمكم لا يربطكم أمام الربّ، لأنّه ثابت أنّكم تحلفون بمَن عرشُه السماء والأرضُ موطئ قدميه؛ ولا بأورشليم لأنّها مدينة الملك الأعظم. وهذا أفضل من القول عنها إنّها مدينتي ولو كان لها المعنى ذاته. وبما أنّه هو الربّ فإنّ من يحلف بأورشليم يرتبط بحلفه أمام الربّ. «ولا تحلف برأسك» وهل من شيء أشدّ ارتباطًا بك من رأسك؟ ما دمنا لا نستطيع أن نجعله شعرة بيضاء أو سوداء! إذن، كلّ من يحلف برأسه يرتبط بحلفه أمام الله الذي يملأ كلّ شيء بما يفوق الوصف بحضوره الدائم في كلّ مكان؟ ومن خلال تلك العبارات يجب أن نستشفّ أشياء وأشياء لا يمكن تعدادها كما في ذلك الحلف الذي أدّاه الرسول وقد

تكلّمنا عليه سابقًا وفيه يقول: «أقسِم أنّي أموت كلّ يوم، بالفخر الذي لي بكم»؛ ثمّ يضيف لكي يبيّن أنّ هذا القسَم يعود إلى الربّ قائلًا: «الذي لي بالمسيح يسوع» (١ قور ١٥: ٣١).

٥٣- على أنّي أقول هذا للترابيّين لأنّ السماء تدعى عرش الله والأرض موطئ قدميه، فلا يجوز أن نتصوّر أنّ لله أطرافًا ترتكز على الأرض والسماء كما هي حالنا عندما نكون جالسين؛ إنّما العرش الذي يشار إليه فهو الدينونة؛ وبما أنّ السماء هي أجمل ما في الخليقة والأرض هي الدنيا، تبدو القدرة الإلٰهيّة أشدّ حضورًا في الأجمل وتترك للأدنى مرتبةً دنيا: ولهذا قيل إنّ الله يجلس في السماوات ويجعل الأرض موطئًا لقدميه. فالسماء تعني، روحيًّا، النفوس القدّيسة، والأرض تعني الخطأة؛ وبما أنّ الإنسان الروحانيّ يحكم في كلّ شيء ولا يحكم فيه أحد، حُقَّ له أن يسمّى عرش الله كما سُمّي الخاطئ موطئ قدميه الذي قيل فيه: «أنت تراب وإلى التراب تعود» (تكوين ٣: ٩)، لأنّ العدل الذي يعامل كلّ إنسانٍ بحسب استحقاقاته هو هو يطرحه في المكان الأسفل، وإذ رفض أن يرعى الشريعة فها هو يرزح تحت عبء الشريعة.

الفصل الثامن عشر

٥٤- وأخيرًا، وختامًا لهذا الموضوع، ما الذي يمكننا أن نقوله أو نتخيّله أشدّ ضنًى وتعبًا وأكثر ملاءمة لتمرين قوى النفس المؤمنة بأكملها من ضرورة التّغلّب على عادة عاطلة؟ فليقطع المسيحيّ، إذن، جميع الأعضاء التي تشكّل عائقًا أمامه يمنعه عن افتتاح ملكوت السماوات من دون أن يحدّ الألم من عزيمته؛ وليحتملْ، إكرامًا للعهد الزوجيّ، أشدّ

الضيقات خطرًا، وكلّ ما لا يحمل سمة الفساد الشائن أي الزنى، على سبيل المثال؛ كما عليه أن يحتفظ، بكلّ أمانة، بالزوجة العاقر، البشعة، الضعيفة البنية، العمياء والعرجاء والصمّاء والمبتلاة بالعاهات والآلام والأسقام وكلّ ما يمكن الإنسان أن يتصوّر من أمور بغيضة، ما عدا الزنى؛ عليه أن يقبل بتلك الزوجة، تجاوبًا مع الأمانة للعهود والوثاق الذي يجمع بينهما. وليس عليه ألّا يتخلّى عن زوجةٍ وحسب، بل إن لم يكن متزوّجًا ألّا يتزوّج ممّن قد انفصلت عن زوجها، وإن تكن جميلة، سليمة البنية، غنيّة، ولودًا؛ وإن كان ذلك عصيًّا عليه فلا يُقِمْ علاقات محرّمة؛ وليهرب من الزنى ومن كلّ فعلٍ أثيم ومعيب؛ عليه أن يكون صادقًا في ما يقول، مؤكّدًا حقيقة كلامه، لا بالإكثار من الحَلف، بل بالأخلاق الحميدة؛ ويسيطر، كما من علٍ، على الأميال السيّئة المتعدّدة التي تحاربه (لم نذكر سوى القليل إنّما انطلاقًا منها نحكم على ما تبقّى) متحصّنًا بالدرع المسيحيّة ولكن، من ذا الذي يجرؤ على القيام بمهمّة صعبة كهذه التي سبق الكلام عليها سوى من يشتعل حبًّا للبرّ، يتآكله الجوع والعطش إليه، معتبرًا الحياة هباءً منثورًا، ما دامت لا تشبع رغباته الصالحة، قابلًا بالعنف الجسديّ وصولًا إلى الملكوت السماويّ؟ وإلّا استحال عليه الحصول على القدرة التي تؤهّله لأن يتحمّل ما يعتبره أبناء هذا الدهر شاقًّا، قاسيًا وصعبًا، من أجل استئصال العادات السيّئة. إذن، «طوبى للجياع والعطاش إلى البرّ لأنّهم سيشبعون» (متى ٥: ٦).

٥٥- أمّا إن لقي أحدُ الناس صعوبةً في هذا المضمار وشقّ عليه السير في طريق شديد الوعورة، وقد أحاطت به التجارب المتنوّعة من كلّ جانب كالجبال؛ ورأى أنّ الحياة الماضية تعود وخشي السقوط، قيامًا بالمهمّة، فعليه أن يستشير، طلبًا للمساعدة. وما هي المشورة

المطلوبة؟ عليه أن يتحمّل ما في القريب من ضعف فيساعده بقدر ما استطاع إليه سبيلًا، كما يشتهي مساعدة العليّ. ومن ثمّ فلنلجأ إلى أعمال الرحمة؛ والحال أنّ الوداعة والرحمة تبدوان وكأنّهما واحد. مع ذلك، فإنّ الإنسان الوديع، الذي سبق أن تكلّمنا عليه، يقبل بورعٍ وطيبة خاطر الأحكام الإلهيّة على خطاياه وما لم يتوصّل بعد إلى فهمه من كلام الله؛ ولكن من دون أن يؤدّي أيّ خدمة إلى الآخر فيكتفي بعدم مقاومته ولا يعترض عليه، في حين أنّ الإنسان الرحوم يرضى، أملًا بإصلاح من يمعن في الشرّ، إذا قاومه.

الفصل التاسع عشر:
ثأر - برّ الفرّيسيّين وبرّ المسيحيّين - الخدّ الأيمن - الرداء - العبوديّة

٥٦- ويتابع الربّ قائلًا: «لقد سمعتم أنّه قيل: العين بالعين والسنّ بالسنّ، أمّا أنا فأقول لكم: لا تقاوموا الشرّير؛ بل من لطمك على خدّك الأيمن، فاعرض له الآخر؛ ومن أراد أن يحاكمك ليأخذ قميصك فاترك له رداءَك أيضًا؛ ومن سخّرك أن تمشي معه ميلًا واحدًا، فامش معه ميلين، ومن سألك فأعطه ومن استقرضك فلا تعرضْ عنه» (متى ٥: ٣٨-٤٣). يقوم برّ الفرّيسيّين على عدم تجاوز الحدّ عندما ينتقم؛ وهي نقطة هامّة إذ ليس من السهل أن نجد إنسانًا يكتفي بردّ الصفعة بصفعة واحدة، أي من يردّ على كلمة مهينة بكلمة أخرى واحدة من العيار نفسه. لأنّ الإنسان في ثورة غضبه ينتقم، بلا قياس، أو يخيّل للناس أنّ العدل يفرض على المهين عقابًا أشدّ من ذاك الذي أنزله بالمهان. لقد وجدت تلك الإجراءات ضابطًا لها قويًّا في الشريعة

القائلة: «العين بالعين والسنّ بالسنّ»، وهو تعبير يعني أنّ الانتقام لا يجوز أن يتعدّى الإهانة؛ وفيه بداية لمسيرة السلام. أمّا السلام الكامل فيقوم على التخلّي التامّ عن ذلك النوع من الانتقام.

٥٧- بين هذين التدبيرين اللذين يخالف أحدهما الشريعة فيقابل الشرّ البسيط بما هو أعظم منه، والآخر يمارس الكمال الذي دعا الربّ تلاميذه إلى ممارسته بحيث لا يقابَل سوءٌ بسوء، نجد حدًّا وسطيًّا يقوم بالردّ على الشرّ بمثله؛ وهي مرحلةٌ انتقاليّة بين العداوة القصوى والسلام التامّ، وهو تدبيرٌ يتجاوب مع مقتضيات العصر. أنظروا إلى المسافة بين من يبدأ هجومه بقصد الضرر والأذى ومن لا يردُّ شتيمة بشتيمة! إنَّ من لم يبدأ الهجوم، إنّما بقصد أو فعلًا، يردّ على الشرّ بما هو أكثر منه يبتعد قليلًا عن الظلم المفرط ويقوم بخطوة أولى نحو العدالة التامّة من دون أن يبلغ الحدّ الذي عيّنه وفرضه موسى في شريعته. إذن، إنّ من يردّ بقدر ما أخذ فقد تنازل إذ لا مساواة في العقاب بين المجرم والبريء. إذن، ذاك هو البرّ الأوّليّ، غير القاسي، بل الرحيم الذي يكمّله ذلك الذي جاءَ لا لينقض الشريعة بل ليكمّلها، تاركًا لسامعيه أن يدركوا بذكائهم الفرق بين المستويين، وقد آثر الكلام على الكمال في الرحمة لأنّه يبقى على من لا يحفظ وصيّةً بالتمام مفروضة في سبيل ملكوت الله ألّا يردَّ بقدر ما أخذ، بل بأقلّ، كأن يردّ على الصفعتين بصفعة واحدة وعلى خسارة عين بقطع أذن. أمّا الذي يتسامى فلا يردّ على الشرّ أبدًا يقترب من وصيّة المخلّص من دون الوصول إليها. إنّه لقليل عليك، بنظر الربّ، ألّا تردّ الشرّ بالشرّ. إن لم تكن مستعدًّا لقبول المزيد منه؛ إذن، هو لا يقول «وأنا أقول لكم لا تردّوا الشرّ بالشرّ». وهي نقطة هامّة بل قال: «لا تقاوموا الشرّير» أي ليس أن تقاوموا الشرّ الذي يصنعونه لكم وحسب، بل ألّا تقاوموا من

يزيد في الإساءة إليكم»، وذاك ما يعرضه بعدئذٍ قائلًا: «ولكن إن صفعك أحدٌ على خدّك الأيمن قدّم له الآخر أيضًا وهو لا يقول: «إن ضربك أحدٌ فلا تضربه بل كن مستعدًّا لقبول المزيد من الضربات. يشعر بالرحمة، هؤلاء الذين يخدمون بحنان المرضى، في بؤسهم، سواءٌ أكانوا أولادًا أم أصدقاء أعزّاء أم عجّزًا، ومن كانوا مصابين بمسّ. وغالبًا ما يتألّمون كثيرًا ويبقون على استعداد لتحمّل المزيد من العذاب إذا استدعى ذلك عجزهم أو مرضهم إلى أن يشفوا ممّا هم من مرض أو وهن. وماذا يستطيع أن يعلّمه طبيب النفوس أولئك الذين يعدّهم لشفاء القريب سوى الصبر على تحمل عاهات من يعملون على شفائهم؟ كلّ عيب في النفس نابع من ضعفها؛ ولا يمكن أن نجد أنقى من الإنسان الذي يعيش بكليّته في الفضيلة.

٥٨- للإنسان الحقّ في أن يسألَ عن معنى الخدّ الأيمن. هكذا جاءَ في النسخ اليونانيّة الأكثر أهلًا للتصديق؛ لأنّ النسخ اللاتينيّة الكثيرة تتضمّن فقط الخدّ ولا ذكر للأيمن فيها. والحال أنّ كلّ إنسانٍ يُعرف بوجهه؛ وإنّنا لنقرأ لدى الرسول في رسالته إلى أهل قورنتس: «إنّكم أنتم الحكماء تحتملون الجهلاء بسرور، تحتملون من يستعبدكم ومن يستأكلكم ومن يأخذ منكم ومن يتكبّر عليكم ومن يضربكم على وجوهكم» (٢ قور ١١: ٢٠). إنّ المقصود بالصفعة على الوجه الذلّ والاحتقار؛ ولا يقولها الرسول لكي يمنع القورنثيّين من أن يحتملوا من يعاملونهم بذلك الشكل بل لكي يحتملوا بشكل أفضل هو الذي يحبّهم حتّى بذل النّفس في سبيلهم قائلًا: «أبذل نفسي لأجل نفوسكم» (٢ قور ١٢: ١٥)، وإذ لم يكن ممكنًا القول بالوجه الأيمن والوجه الأيسر، وبما أنّ هنالك شرفًا بحسب الله وشرفًا بحسب العالم، يميّز الأيمن عن الأيسر حتّى إنّ كلّ تلميذ للمسيح يصبح اسم المسيحيّ لديه موضوع

احتقار، يكون أكثر استعدادًا لأن يرى ما لديه من كرامات دنيويّة محتقرة. غير أنّ الرسول بولس نفسه، وإذ كانوا يتأهّبون لضربه لكونه مسيحيًّا لو التزم الصمت عن كرامته كمواطن لم يعرض الخدّ الآخر للذين يلطمونه على الخدّ الأيمن قائلًا لهم: «أنا مواطن رومانيّ» (أعمال ٢٢: ٢٥ و٢٧) ولكنّه بقوله: «أنا مواطن رومانيّ» لم يكن أقلّ استعدادًا لأن يرى من كانوا يحتقرون فيه اسمًا خلاصيًّا ولا أغلى من أن يحتقروا فيه ما هو أقلّ كرامة. وهل احتمل بصبر أقلّ القيود التي ما كان يسمح بأن يكبَّل فيها مواطن رومانيّ؟ وهل اتّهم أحدًا، من جرّاء ذلك، بظلامة؟ وإن كان قد روعي خاطره مرّة لكونه مواطنًا رومانيًّا غير أنّه لم يتهرّب من الضرب فصبر لكي يشفي من المكر الآثم من رآهم يؤثرون فيه تكريم الجانب الأيسر على الجانب الأيمن. وهنا لا يجوز أن نتطلّع فيه إلّا إلى العطف والرفق والرعاية التي كان يواجه بها مضطهديه. لقد تلقى صفعة بأمر من رئيس الكهنة لكونه قال كلمة كأنّها وقحة وهي: «سيضربك الله أيّها الجدار المبيضّ» (أعمال ٢٣: ٣٠). ولكن هذا الكلام الذي اعتبره الجهّال «شتيمة» كان برأي العقلاء نبوءَةً. فالجدار المبيضّ يعني الرياء، أي التقنّع بالكرامة الكهنوتيّة إخفاءً للدناءة والخسّة تحت اسم برّاق نوعًا ما أبيض، إن صحّ القول. يبقى الرسول رائعًا في أمانته للتواضع حينما قالوا له: «أتشتم عظيم الأحبار؟» فيجيبهم: «ما كنت أعلم أيّها الأخوة أنّه عظيم الأحبار فقد كُتب: «لا تُسئ القول في رئيس شعبك» (أعمال ٢٣: ٤-٥). إنّه لجوابٌ عفيف ورقيق جدًّا ما كان ليصدر عن إنسانٍ غاضب ومضطرب، يدلّ بما فيه الكفاية على الهدوء الذي تكلّم به بدا أنّ الغضب كان يمليه. ولقد كان صادقًا أمام من تمنّى لو فهموا كلامه القائل: «ما كنت أعلمُ أنّه عظيم الأحبار»، وكأنّه يريد أن يفهموا منه أنّه يعرف رئيس أحبار آخر باسمه

يحتمل ما يحتمل، هو الذي يُمنع أن يساءَ القول فيه بينما أنتم تفعلون ولا تكرهون فيَّ سوى اسمه وهكذا يجب أن يقال، بلا نفاقٍ وقلب مستعدّ لكلّ شيء فيرنّم مع النبيّ: «قلبي مستعدّ يا الله» (مزمور ١٠٧ : ١). ما أكثر الذين يعرفون أن يقدّموا الخدّ الآخر ولكنّهم لا يعرفون أن يحبّوا الذي يضربهم. والربّ نفسه الذي كان في طليعة من أتمَّ الوصايا التي أعطاها لم يُدر الخدَّ الآخر لخادم عظيم الأحبار الذي صفعه بل قال له: «إن كنت أسأت القول فاشهد على ما فيه أسأت. وإن كنت أحسنت فلمَ تضربني؟» (يوحنا ١٨ : ٢٣)؛ هو الذي لم يكن مستعدًّا في قلبه لأن يضرب على الخدّ فحسب بل لأن يموت بكلّيته على الصليب لخلاص الجميع.

٥٩- ومن ثمَّ، فالكلمات التالية: «إنّ من أراد أن يشكوك إلى القضاء ليأخذ قميصك، فخلِّ له رداءَك أيضًا» (متى ٥ : ٤٠)، يجب أن تُفهم بمعنى إعداد القلب، لا حبًّا بالتظاهر. وإنّ ما يقال على القميص والرداء لا ينطبق على هذين الشيئين وحسب، بل على كلّ الخيور الزمنيّة التي نمتلكها. وإن طُلبَ منّا أن نضحّي بما هو ضروريّ لدينا فالأجدر لنا ألّا نمتلك ما يفيض عن حاجتنا. ولكن، عندما نتكلّم على ما لنا فإنّي أقصد كلّ ما أشار إليه قائلًا: «من أراد أن يشكوك إلى القضاء ليأخذ قميصك». إذن، إنّه يعني كلّ ما يمكن أن نُشكى منه أمام القضاء، أي ما يمكن أن ينتقل من ملكيّتنا إلى ملكيّة مَن يقاضي أو من يقاضى عنه كثوب أو بيت أو عقار أو دابّة، وبنوع عامّ، كلّ ما يقدَّر بمال. ولكن، هل يجب أن يطبّق هذا الأمر على العبيد؟ إنّ السؤال خطير لأنّه لا يحقّ لمسيحيّ أن يقتني عبدًا كما يقتني حصانًا أو إناءً من فضّة، حتّى وإن كان ثمن العبد أقلّ من ثمن الحصان أو أبخس من ثمن آنية الفضّة أو الذهب. أمّا إن قمت أنت، السيّد، بتربيته وتوجيهه بكثير

من الحكمة والكرامة وجعلته في حالةٍ يخدم الله فيها أفضل ممّا يفعل من يرغب في انتزاعه منك، فلست أدري إن كان أحدٌ يجرؤ على أن يشير عليك بألّا تستمسك به أكثر من ثوب. فعلى الإنسان أن يحبّ الإنسان الآخر كحبّه لنفسه؛ لأنّ الإنسان الذي يأمره الربّ بأن يحبّ أعداءَه، عليه أن يحبّ نظيره كنفسه كما سنبيّن لاحقًا في كلامنا.

٦٠- إنّما تجدر الإشارة إلى أنّ كلّ قميص رداء ولكن ليس كلّ رداءٍ قميصًا. إنّ لكلمة رداء معنًى أشمل من كلمة قميص؛ ولهذا أظنّ أنّ الربّ حين قال: «ومن أراد أن يشكوك إلى القضاء ليأخذ قميصك فخلِّ له رداءَك أيضًا كأنّه يقول: ومن أخذ قميصك، فخلِّ له أيضًا كلّ ثيابك. والحال أنّ بعض الشرّاح قد ثبّتوا لفظة **Pallium** باللغة اللاتينيّة بمعنى رداء ولفظة **Cination** باللغة اليونانيّة.

٦١- «ومن سخّرك أن تمشي معه ميلًا فامشِ معه ميلين»: يقصد من هذا الكلام هنا استعداد القلب للعطاء، أكثر منه السير الفعليّ على القدمين، لأنّ التاريخ المقدّس ذاته المعتمد من قبل السلطة لا يعطينا أمثلة على قدّيسين عملوا شيئًا من ذلك حتّى الربّ نفسه وإن يكن قد صار إنسانًا مثلنا ليكون لنا مثالًا نقتدي به؛ ومع ذلك فإنّك تجدهم تقريبًا في كلّ مكان على استعداد لاحتمال الشدائد الأقوى ظلمًا. ولكنّ هذه الكلمات «سر معه ميلين» ألا تهدف إلى إكمال العدد ثلاثة، رمز الكمال؟ وإذ يتصرّف الإنسان على ذاك الشكل يذكّر أنّه يعمل البرّ لأنّه يتحمّل بطواعية آلام الذين يتمنّى لهم الشفاء. إذ ذاك نستطيع القبول بأنّ المسيح قد وضع وصايا ثلاثًا: الأولى هي إن صفعك واحد على خدّك والثانية هي إن طلب رداءَك، والثالثة إن سخّرك أن تمشي معه ميلًا. وكان باستطاعته أن يضيف إلى هذه الثالثة واحدًا إلى اثنين

حصولًا على الثلاثة. إن لم يكن هذا العدد لا يعني هنا الكمال كما قلنا سابقًا فإنّنا نفهم أنّ الربّ يبدأ بالأسهل ثمّ يتقدّم شيئًا فشيئًا وصولًا إلى ضعفَي ما هو مطلوب. وفي الواقع، يريد بادئ ذي بدءٍ أن يقدّم الإنسان الخدّ الأيسر بعد صفع الأيمن لتكون على استعداد لتحمّل إهانة أخفّ من تلك التي أصبت بها، لأنّ ما يتعلّق بالجهة اليمنى أهمّ وأغلى ممّا ترمز إليه الجهة اليسرى. وكلّ من تحمّل ألمًا في ما هو عزيز عليه يتحمّل بسهولة خسارةً في ما هو أقلّ قيمة. ثمّ إنّ المخلّص يريد من الإنسان أن يتخلّى عن الرداء لمن يطلب القميص أي ما يساويه قيمة أو ما هو أغلى من دون أن يكون ضعفه. وثالثًا عندما يأمر بالقيام بألفي ميل ليس أكثر مع من يطلب الألف فإنّه يأمرك بأن تتحمّل الضعف ويريد، من خلال ذلك، أن يُفهمك أنّه إن أراد إنسان شرّير أن يسيءَ إليك بأقلّ ممّا سبق أن فعل أو بأكثر فعليك أن تتحمّل بصبرٍ كلّ ذلك.

الفصل العشرون

٦٢- أظنّ أنّ هذه الأمثلة الثلاثة تتضمّن كلّ أنواع الظلم. وفي الواقع أنّنا نقسم كلّ أنواع السوء قسمين، تلك التي يمكن أن نكون لها ضحايا: منها ما لا يمكن التعويض عنها ومنها ما يمكن ذلك؛ يَسعى الإنسان في الأولى عادةً إلى تعزية في الانتقام. ولكن ما النفع مِن ردِّ الضربة بمثلها؟ إنّ من أصيب بجرح في الجسم فهل يشفى بذلك؟ بيد أنّ النفس المنتفخة كبرًا تطالب بذاك النوع من التعازي؛ غير أنّ النفس السليمة والقويّة لا تجد لذّة لها في الانتقام: فضلًا عن ذلك، إنّها تؤثر أن تحتمل بطيبةٍ ضعف الآخر على أن تسعى من خلال أذيّته إلى تخفيف ما هي عليه من ضعف لا وجود له أصلًا.

٦٣- ولكنّ العقاب الذي يؤدّي إلى الإصلاح مقبول هنا حتّى إنّه يُؤلّف جزءًا من الرحمة ولا يمنع من أن يكون مستعدًّا لتحمّل كلّ شيء من قبل من نريد أن نراه أفضل. إنّما ما من إنسانٍ يستطيع أن يمارس هذا النوع من الانتقام إلّا من كانت محبّته قادرة على كبت البغض الذي يتأجّج في صدور من يرغبون في الانتقام؛ ولا يخاف (الأهل) الوالدون من أن يكرهوا ابنهم الصغير الذي يخطأ وقد أرادوا أن يجنّبوه الوقوع ثانيةً في الخطيئة. وإنّ الله كأبٍ يقدّم إلينا مثالًا على المحبّة الكاملة لنقتدي به بقوله بعدئذٍ: «أحبّوا أعداءكم وأحسنوا إلى من يبغضكم وصلّوا لأجل من يضطهدكم» (متى ٥: ٤٤). كما جاء أيضًا على لسان النبيّ: «إنّ الذي يحبُّه الربّ يؤدّبه كأبٍ بابنه» (أمثال ٣: ١٢). ويقول الربّ أيضًا: «إنّ العبد الذي عرف مشيئة سيّده، وما أعدَّ شيئًا، ولا عمل بمشيئة سيّده، يضرب ضربًا كثيرًا؛ وأمّا الذي لم يعملها، وعمل ما يستوجب به الضرب فيضرب ضربًا قليلًا» (لوقا ١٢: ٤٧-٤٨). فالاقتصاص، إذن، منوط بمن له السلطان، يطبّقه، وفقًا للنظام، كأبٍ على ابنه الصغير الذي لا يستطيع أن يبغضه لصغر سنّه. وإنّه لمثلٌ يساعد تمامًا على التعريف بأنّ الانتقام أحيانًا بدافع المحبّة أفضل من عدم القصاص، لا عن رغبة في أن نعاقب المذنب بل سعيًا إلى أن يكون القصاص سبيلًا إلى التوبة، على أن نبقى على استعداد لكي نتحمّل بصبر، إذا ما لزم الأمر، مزيدًا من الافتراءات، من قبل من نرغب في إصلاحه، سواءٌ أكان لنا السلطان على ردعه أم لا.

٦٤- على أنّ رجالًا عظامًا وقدّيسين، مع اقتناعهم بأنّ الموت الذي يفصل النفس عن الجسد ليس مدعاةً للخوف قد عاقبوا بعض الأخطاء بالموت، متجاوبين مع من يخافونه؛ رغبةً في إشاعة الرعب بين الأحياء ودفاعًا عن مصلحة المذنبين أنفسهم، الأقلّ تأثّرًا بالموت،

منهم بخطيئتهم، التي كانت ستتفاقم فيما لو بقوا أحياء. وما كان ذلك الحكم الذي أوحى به الله من دون أساس. وعلى هذا النحو، فقد قضى إيليّا على كثيرين، إمّا بده (ملوك ثالث ١٨ : ٤٠) أو باستنزال نار من السماء عليهم (ملوك رابع ١ : ١٠)، وهكذا تصرّف الكثيرون من العظماء والقدّيسين، لا عن قلّة تفكير، بل بالروح عينه ولخير البشريّة. وإذ ذكّر التلاميذُ الربَّ يسوع في أحد الأيّام بما صنعه إيليّا لكي يسألوه سلطانًا بإنزال النار من السماء على الذين رفضوا قبولهم (لوقا ٩ : ٥٢-٥٦) وبّخهم الربّ، لا على ما فعله النبيّ بل على الرغبة في الانتقام الأعمى وأنّبهم كذلك، لأنّ الحقد هو الذي دفعهم إلى اتّخاذ ذلك الموقف؛ لا رغبةً في هدي الأثمة؛ ولقد علّمهم، فيما بعد، معنى محبّة القريب كنفسه؛ وحين برّ بوعده فأرسل إليهم الروح القدس بعد صعوده إلى السماء بعشرة أيّام (أعمال ٢ : ١-٤) لم تنقطع أمثال تلك الانتقامات، وإن خفّت عمّا كانت عليه في العهد القديم؛ وكان العمل غالبًا ما يتمّ حينها عن خوف؛ أمّا الآن، وقد أصبحوا أحرارًا، فإنّ المسيحيّين وجدوا قوّتهم الأساسيّ في المحبّة. إنّنا لنقرأ في أعمال الرسل أنّ حننيا وزوجته سقطا ميتين بكلمةٍ من الرسول بطرس ولم يقوما بل جرى دفنهما (أعمال ٥ : ١-١٠).

٦٥- إن كان بعض الهراطقة، أعداء العهد القديم، لا يقبلون بشرعيّته فنحن ندعوهم إلى ما يقوله بولس الرسول (وهم يقرأونه مثلنا) الذي يتكلّم على تسليم أحد الخطأة إلى الشيطان لهلاك جسده «وخلاص روحه» (قور ١٥ : ٥)، وإن رفضوا أن يروا، في ما جرى، موتًا حقيقيًّا، وهو لا شكّ فيه؛ فعليهم أن يقرّوا، أقلّه، بأنّ الرسول قد استعمل قصاصًا معيّنًا بواسطة الشيطان، لا عن بغض، بل بمحبّة، كما تشير إليه عبارة «وخلاص روحه» وإلّا وجدوا برهانًا على ما نقول في

كتبٍ يولونها شرعيّة كبرى، يقرأون فيها برهانًا أنّ الرسول طالب بأفظع ميتة لرجلٍ كان قد صفعه سائلًا الله في الوقت عينه أن يحفظ روحه في الآخرة فكان أن افترسه أسد؛ وإذا اقتطع كلبٌ يده عن جسمه، حملها إلى الطاولة، حيث كان الرسول يتناول طعامه. إنّنا لسنا مضطرّين إلى تصديق ذاك الكتاب الذي لا تعتبره الكنيسة الكاثوليكيّة قانونيًّا إنّما يُعتبر بمثابة عرض من قبل خصومنا للحقيقة التي لا تشوبها شائبة. إنّ هؤلاء الأخصام المصابين، لست أدري بأيّ عَمَهٍ، يثورون ضدّ كلّ أعمال الانتقام الجسديّ التي يرويها العهد القديم، ويجهلون كليًّا عقليّة أهل ذلك الزمان، وما جرى فيه من أحداث.

٦٦- وعليه، سوف يتّخذ المسيحيّون قاعدةً في نوع المظالم التي يكفّرون عنها بالانتقام بحيث لا ينقلب الشعور بالإهانة إلى حقدٍ؛ بل يجب على القلب الذي يرقُّ للضعيف أن يكون مؤهّلًا لقبول المزيد من الألم؛ فلا يهمل الإصلاح بل ليستعمل، بحسب الظروف، النصح والسلطة والقوّة. وهنالك نوع آخر من المظالم يمكن إصلاحها كليًّا وله وجهان: منه ما يتمّ التعويض عنه بالمال والآخر بالعمل. النوع الأوّل يتعلّق بما قيل عن الرداء والقميص؛ والثاني يختصّ بما قيل عن الإرغام على السير معه ميلًا وتسخيره على السير ميلين طالما أنّ الأمر يتمّ، من جهة، بإعادة ثوب، ومن جهة أخرى، بتقديم خدمة، بحسب الحاجة، إلى من باشر فقدّم خدمة أولى، إلّا إذا فهمنا في مثل صفعة الخدّ، المقصود بها الشرّ، كلّ نوعٍ من أنواع الظلم الذي لا يكفّر عنه إلّا بالانتقام، وفي مثل الرداء كلّ أنواع الإساءات الممكن التعويض عنها بشكل آخر؛ إذ ذاك فإنّ ما قيل: «إن أراد إنسان أن يقاضيك» يكون قد أضيف ليدلّ على أنّ ما ألغاه حكم قضائيّ لا يستوجب القصاص لأنّه لا يشكّل عملًا عنيفًا؛ كما وأنّه ينتج من النوعين مجتمعين نوع ثالث

يمكن إصلاحه بالانتقام أو بدونه. وفي الواقع، إنّ كلّ من يفرض بالقوّة، وخارجًا عن القضاء، خدمةً لا حقّ له فيها، كمثل مَن يُرغِمُ، يلاحق، إنسانًا على السير معه ميلًا، يمكن أن يعاقب أو أن يؤدّي خدمة مماثلة قد تطالب بها الضحيّة. إنّما في كلّ تلك الحالات، يعلّمنا الربّ أنّه على المسيحيّ أن يكون مفعمًا بالصبر والرحمة وعلى أتمّ الاستعداد لتحمّل المزيد من العذابات.

٦٧- ولكن، إن كان الترفّع عن الأذيّة شيئًا بسيطًا ولم يؤدّ الإنسان من الخدمات ما استطاع إليها سبيلًا، فالربّ يتابع قائلًا: أعطِ من يسألك ولا تُشحّ بوجهك عمّن يستقرضك ولا تعطه كلّ ما يسألك بل ما يسمح لك به البرّ والشرف. إذن، إن سألك مالًا، الإساءة إلى آخر واستدراجك إلى فعل الزنى؟ وهناك أمور كثيرة أعفُّ عن ذكرها. من الواضح أنّه لا يجوز لك أن تعطي إلّا ما لا يؤذيك ويؤذي الآخرين، بقدر ما يُعطى للإنسان أن يعرف أو يقدّر. وعندما يضطرّك العدل إلى أن ترفض ما يُطلب منك، اذكر الأسباب لئلّا تردَّ السائل خائبًا؛ واستنادًا إلى ذلك الموقف فإنّك تعطي، حقًّا، من يسألك، من دون أن تعطيه دومًا مطلوبه؛ وأحيانًا فإنّك تعطيه الأفضل إذ تجعله يشعر بأنّه ليس على حقٍّ في ما يطلبه، وتعمل على إصلاحه.

٦٨- أمّا بشأن هذا القول: «لا تُشحّ بوجهك عمّن يستقرضك» فهو يختصّ باستعداد النفس، «لأنّ الله يحبّ المعطي الفرحان» (٢قور ٩: ٧)، لأنّ كلّ من يتلقّى ولو لم يجب عليه أن يفي لأنّه كما أنّ الله يسخو على الرحماء فمن يسخو يستثمر ماله مع الفائدة؛ أمّا إذا فهمنا هنا بالمستقرض فقط ذاك الذي يأخذ ليفي، وجب حينئذٍ أن نقول إنّ الله وضع نصب عينيه هذين النوعين للدَّين. والحال، إمّا أن نهب بطيبة

خاطر ما نقدّمه وإمّا أن نعني هنا بمن يستقرض ذاك الذي يأخذ ليردّ لنا. وغالبًا فإنّ الكثيرين ممّن يستعدّون للعطاء آملين بالمكافأة الإلهيّة قلّما يستعدّون للإقراض كأنّهم لا ينتظرون شيئًا من الله لأنّه على المستقرض أن يفي بما عليه. وبحقٍّ، يستحثّنا الربّ على ممارسة هذا النوع من الخدمة بقوله لنا: «لا تشحّ بوجهك عمَّن يريد أن يقترض منك»، أي لا ترفض أن تعطي من يطلب منك بحجّة أنّ مالك لن يعود إليك بشيء وإنّ الله لن يحسبه لك، لأنّ واجب الوفاء يترتّب على المستقرض، لأنّك حين تعمل بأمرٍ من الله يستحيل أن يبقى عملك عقيمًا في عيني من أوصاك به.

الفصل الحادي والعشرون:
يجب علينا أن نحبّ أعداءَنا ومضطهدينا

٦٩- ثمّ أضاف الربّ قائلًا: «لقد سمعتم أنّه قيل: أحبب قريبك وأبغض عدوّك، أمّا أنا فأقول لكم: أحبّوا أعداءَكم وصلّوا من أجل مضطهديكم لتصيروا أبناء أبيكم الذي في السماوات لأنّه يُطلع شمسه على الأشرار والأخيار ويُنزل غيثه على الأبرار والفجّار. فإن أحببتم من يحبّكم فأيّ أجر لكم؟ أوليس العشّارون يفعلون ذلك؟ وإن سلّمتم على إخوانكم، وحدهم، فأيّ زيادة فعلتم؟ أوليس الوثنيّون يفعلون ذلك؟ كونوا أنتم كاملين كما أنّ أباكم السماويّ كامل» (متى ٥: ٤٣-٤٨). إذن، إن خلا الإنسانُ من الحبّ الذي يجب أن نحبّ به أعداءَنا ومضطهدينا فهل يستطيع أن يحفظ الوصايا المعطاة أعلاه؟ إنّ كمال الرحمة الذي يلبّي حاجة كلّ نفس متضايقة لا يستطيع أن يتجاوز محبّة العدوّ. ولهذا ينهي الربّ كلامه قائلًا: «كونوا كاملين كما أنّ أباكم

السماويّ كامل». لا شكّ في أنّ الله كامل كما هو الله، والنفس كاملة كما هي النفس.

٧٠- إنّنا لنلحظ من خلال ذلك تقدّمًا ما، في برّ الفرّيسيّين، برّ الشريعة القديمة حيث إنّ كثيرين يبغضون من يحبّونهم كما هي حال الأبناء الفجّار مثلًا الذين يكرهون والديهم الذين يؤنّبونهم على أعمالهم السيّئة. إذن، إنّ من يحبّ قريبه مع أنّه يبغض عدوّه يرتفع درجة؛ إنّما انطلاقًا ممّا أمر به هذا الذي لم يأتِ ليبطل الشريعة بل ليكمّلها، سوف يسير بالطيبة والانفتاح على الآخر حتّى الكمال إن راح يحبّ عدوّه لأنّ الدرجة الأولى، وإن تكن على شيء من الأهميّة، تبقى على صغارتها لما لها من شراكة مع العشّارين. أمّا أقوال الشريعة هذه: «أبغض عدوّك» فلا يجوز اعتبارها أمرًا موجّهًا إلى البارّ بل تعتبر تساهلًا مع الضعيف.

٧١- تبرز هنا صعوبة لا يمكن السكوت عنها؛ وهي أنّ في عدّة أماكن من الكتاب المقدّس نصوصًا تبدو لمن لا يدرسها، بدقّة ودراية، مناقضة لأمر الربّ الذي يدعونا إلى أن نحبّ أعداءَنا ونحسن إلى من يبغضوننا ونصلّي لأجل من يضطهدوننا وفي الواقع، إنّنا لنرى في النبوءات عدّة ابتهالات يمكن اعتبارها لعنات مثلًا: «لتكن مائدتهم قدّامهم فخًّا وجزاءً وشركًا» (مزمور ٦٨ : ٢٣)، إلى ما هنالك في النصّ كهذه الكلمات: «ليكن بنوه يتامى وامرأته أرملة» (مزمور ١٠٨ : ٩) وكلّ ما يقوله النبيّ في هذا المزمور ١٠٨ سابقًا ولاحقًا بشأن يهوذا، كلام مخالف لوصيّة الربّ ووصيّة الرسول القائلة: «باركوا ولا تلعنوا» (رومة ١٢ : ١٤)؛ وقد جاء في الكتاب أيضًا أنّ الربّ نفسه لعن المدن التي لم تقبل كلامه كما قال الرسول الذي ذكرناه سابقًا ولم يوفّر بعض

الناس: «إنّ اسكندر النحاس قد أساء إليَّ كثيرًا وسيجزيه الربّ على ما قدّمت يداه» (٢ تيموتاوس ٤: ١٤).

٧٢- أمّا الجواب فسهل. إنّ النبيّ يعرض بشكل دعاء بالويل ما يجب أن يحصل؛ ولا يعبّر عن طلب أو رغبة، إنّما يتنبّأ بالمستقبل. تلك هي حال الربّ والرسول اللذين لا نجد في أقوالهما ما يتمنّونه؛ والحال، عندما يقول الربّ الويل لك يا كفرناحوم، يتكلّم فقط على حدثٍ سوف يحلّ بها عقابًا على عدم أمانتها وليس عن رغبة في الإيذاء بل يعلن عن رؤية إلهيّة. ولا يقول الرسول بدوره: «ليجازه الربّ» بل «سوف يجازيه الربّ بحسب أعماله» وتلك هي نبوءَة وليست لعنة. وهكذا أيضًا بالنظر إلى خيانة اليهود التي تكلّمنا عليها سابقًا وقد رأى هلاكهم الوشيك قال: «سيضربك الربّ أيّها الحائط المبيض» لقد تعوّد الأنبياء الكلام على المستقبل تحت شكل إنذار بالويل، كما تعوّدوا أيضًا التنبّؤ عن المستقبل، بصورة الماضي، مثلًا: «لماذا ارتجّت الأمم وهذّت الشعوب بالباطل؟» (مزمور ٢: ١). ولا يقول صاحب المزامير بصيغة المستقبل: «لماذا سوف ترتجّ الأمم وتهذّ الشعوب بالباطل؟»؛ لم يكن يقصد التذكير بالماضي بل يتنبّأ عمّا سيحدث في المستقبل. وإليكم هذا المقطع الذي يُعطي بالصيغة عينها: «إقتسموا ثيابي وعلى قميصي اقترعوا» (مزمور ٢١: ١٩)، ولا يقول: «سوف يقتسمون ثيابي وسوف يقترعون على قميصي»؛ وليس ثمّة من يعترض على تلك الصيغة في التعبير اللغويّ، إلّا ذاك الذي لا يفهم أنّ هذا التنوّع في الصور لا يُضعف الحقيقة بل يساعد بصورة فريدة على انطلاقة القلب.

الفصل الثاني والعشرون

٧٣- لكنّ النقطة الأساسيّة في تلك الصعوبة هي في هذا المقطع للقدّيس يوحنّا الرسول: «إذا رأى أحدٌ أخاه يقترف خطيئة لا تؤدّي إلى الموت فعليه أن يصلّي والله يُنعم بالحياة على أخيه الذي يرتكب خطيئة لا تؤدّي إلى الموت»؛ (ولا أعني الذين يقترفون الخطايا التي تؤدّي إلى الموت) (١ يوحنا ٥: ١٦) ومن الخطايا ما يؤدّي إلى الموت ولست أطلب الصلاة لها. من الواضح أنّ الرسول يشير هنا إلى إخوانٍ لسنا مضطرّين إلى الصلاة لأجلهم في حين أنّ الربّ يأمرنا بأن نصلّي حتّى لمن يضطهدوننا (متى ٥: ٤٤). ولا يمكن حلّ هذه الصعوبة إلّا إذا اعترفنا بأنّ بعض الأخوة يرتكبون خطايا تفوق بفظاعتها اضطهاد عدوّ. ولا نستطيع، من خلال شهادات متّخذة من الكتب المقدّسة، أن نقول إنّ لقب الأخوة ينطبق على المسيحيّين وذاك هو ما يظهر بوضوح في نصّ الرسول القائل: «إن كان لأخ امرأة غير مؤمنة... لأنّ الزوج الكافر يتقدّس بامرأته والمرأة الكافر تتقدّس بالزوج المؤمن...» (١ قور ٧: ١٤)، ولم يقل لأخينا؛ إنّما فكّر أنّه قد يرى الإنسان بوضوح أنّه كان يعني باسم «الأخ» مسيحيًّا متزوّجًا من امرأة غير مؤمنة، مضيفًا بعد قليل قوله: «إن افترق غير المؤمن فليفترق هو أيضًا» لأنّ أخانا أو أختنا لا يُستعبدان في تلك الحالة (١ قور ٧: ١٥). أظنّ، إذن، أنّ خطيئة كهذه على أخ يسير إلى الموت تتمّ؛ أنّه بعد أن عرف الله بنعمة سيّدنا يسوع المسيح تنتهك الوحدة الأخويّة ثمّ باحتقار نعمة المصالحة يتعرّض للعذاب بنيران الحسد. على أنّ تلك الخطيئة لا تؤدّي إلى الموت إن لم تقضِ على المحبّة الأخويّة؛ ولكنّها تقتصر على أن ترفض، تحت تأثير بعض الضعف، الخدمات الطيّبة التي يجب على

الأخ أن يقدّمها إلى أخيه. ولهذا قال الربّ على الصليب: «يا أبتاه، اغفر لهم لأنّهم لا يدرون ما يصنعون» (لوقا ٢٣: ٣٤)، وذلك لأنّهم ما كانوا قد قبلوا نعمة الروح القدس، ولا كانوا حتّى ذلك الحين مدرّبين على العقائد المقدّسة الداعية إلى الوحدة الأخويّة. إنّ الطوباويّ إسطفانوس صلّى، بحسب ما جاء في أعمال الرسل، لأجل من كانوا يرجمونه لأنّهم ما كانوا مؤمنين بالمسيح ولا كانوا يرفضون روح الشراكة؛ كما وأنّي أظنّ أنّ بولس الرسول لم يصلِّ من أجل اسكندر النحاس لأنّه قد أصبح في عداد الإخوة؛ وبما أنّه كان يحطّم، عن حسدٍ، رباط المحبّة الأخويّة ذهبتْ به خطيئته إلى الموت. أمّا أولئك الذين احتفظوا برباط المحبّة، مع أنّهم سقطوا في الخوف، فإنّ الرسول يسأل لهم الغفران قائلًا في هذا الصدد: «إنّ اسكندر النحاس أنزل بي الكثير من الأذى وسيجازيه الربّ بحسب أعماله. فاحذره لأنّه قاوم كلامنا بضراوةٍ، ثمّ يذكر الذين يصلّي من أجلهم قائلًا: «في دفاعي الأوّل ما كان إلى جانبي أحد بل تركوني جميعهم، لا جازاهم الله» (٢ طيموتاوس ٤: ١٤-١٦).

٧٤- إنّ هذا الفرق بين الخطأة هو الذي يميّز يهوذا الخائن من بطرس الذي أنكر؛ (لا يعني هذا أنّه يجب حجب الصفح عمّن يندم؛ وإلّا خالفنا وصيّة الربّ الآمر بالصفح عن أخ يطلب الصفح) بل لأنّ يهوذا اتّخذ موقفًا لم يتّضح فيه، طلبًا للصفح، مع أنّ ضميره اضطرّ إلى الاعتراف بجريمته، قائلًا: «لقد خطئت إذ سلمت دمًا بريئًا» واندفع إلى الانتحار يأسًا لأنّه وجد الانتحار يأسًا أسهل من طلب المغفرة اتّضاعًا (متى ٢٧: ٤). وعلى هذا النحو يجب علينا أن نعرف لأيّ نوع من الندامة يمنح الله المغفرة. كثيرون يسرعون إلى الإقرار بخطاياهم ويثورون على أنفسهم حتّى إنّ من يراهم يعتقد أنّهم غاضبون من

أنفسهم، لكونهم قد خطئوا؛ بيد أنّهم لا يتواضعون ولا يطلبون المغفرة بانسحاق؛ إذ ذاك يجب الاعتقاد أنّ حالتهم النفسيّة هذه قد تسبّبت بها فداحة خطيئتهم وهي إدانةٌ لهم.

٧٥- وقد تكون تلك الخطيئة خطيئةً ضدّ الروح القدس التي تقوم على تحطيم رباط المحبّة الأخويّة، بمكر ورياء، بعد الحصول على نعمة الروح القدس؛ وهي خطيئة لا تُغفر، يقول الربّ، لا في هذا العالم ولا في الآخرة. وانطلاقًا من ذلك، بوسعنا أن نسأل إن كان اليهود قد خطئوا ضدّ الروح القدس بقولهم عن الربّ إنّه كان يطرد الشياطين باسم بعل زبوب، رئيس الشياطين. ولنفترض أنّها إهانة موجّهة إلى المخلّص طالما يقول في موضع آخر: «إن كانوا يدعون ربّ البيت بعل زبوب فكم بالأحرى أهل بيته؟» (متى ١٠: ٢٥)، أم علينا أن نقول إنّهم خضعوا لتأثير شعورٍ عنيف بالغيرة فاندفعوا إلى مواجهة الإحسان الملموس بنكران الجميل؛ ومع أنّهم ما كانوا قد أصبحوا مسيحيّين، حتّى تلك الساعة، فقد خطئوا ضدّ الروح القدس عن حسدٍ مفرط؟

ذاك ما لا نقوى على استنتاجه من كلام الربّ. ومع أنّه قد قال في الموضع عينه: «من قال كلمة على ابن الإنسان يُغفر له؛ أمّا من قال على الروح القدس فلن يُغفر له، لا في هذا الدهر ولا في الدهر الآتي» (متى ١٢: ٣٢)، يمكننا أن نعتبر كلامه ذاك إرشادًا موجّهًا إلى سامعيه يحثّهم على الانصياع للنعمة والامتناع، بعد الحصول عليها، عن الخطايا التي أذنبوا لارتكابها حتّى ذلك الوقت؛ بحيث إنّهم قد جدّفوا على ابن الإنسان وكان باستطاعتهم أن ينالوا الغفران شرط أن يتوبوا ويؤمنوا به لينالوا الروح القدس. أمّا إذا بادروا، بعد قبوله، إلى تحطيم

أواصر الأخوّة، عن حسدٍ، وقاوموا النعمة التي حصلوا عليها، إذ ذاك لن يبقى مجال لمغفرة خطاياهم لا في هذا الزمان ولا في الآتي. إذن، لو اعتبرهم الربّ مُدانين بغير رجاء، لما وجّه إليهم التحذير الذي أعطاهم إيّاه فيما بعد قائلًا: «إجعلوا الشجرة طيّبة وثمرها طيّبًا أو اجعلوا الشجرة خبيثة وثمرها خبيثًا» (متى ١٢: ٣٣).

٧٦- علينا أن ندرك، إذن، أنّ وصيّة المحبّة لأعدائنا والإحسان لمن يبغضوننا والصلاة لأجل من يضطهدوننا، لا تفرض علينا الصلاة من أجل بعض خطايا إخوتنا؛ وإلّا، لكنّا وضعنا، عن جهل، الكتاب الإلٰهيّ في تناقض مع ذاته؛ وهذا لا يمكن أن يصير. ولكن، إن وُجد من لا يجوز أن نصلّي لأجلهم، فهل هناك من يجب علينا أن نصلّي لأجلهم؟ حتّى الآن، أنا لست على بيّنةٍ من الأمر. لقد قيل بوجه عام: «باركوا ولا تلعنوا» (رومة ١٢: ١٤)، وأيضًا: «لا تبادلوا أحدًا شرًّا بشرّ» (رومة ١٢: ١٧). أمّا ألّا نصلي من أجل أحد فلا يعني ذلك أن نصلّي ضدّه. قد ترى أنّ عقابه مؤكّد وأنّ خلاصه ميؤوس منه، على الإطلاق؛ فإن لم تصلّ لأجله فليس بدافع من الحقد، بل لأنّك واثق من أنّه لن يجني فائدة منك؛ وأنت لا تريد أن يرفض الديّان الكليّ العدل صلاتك. ولكن، ماذا نقول عمّن نعرف أنّ قدّيسين صلّوا لأجلهم، لا بهدف الحصول على توبتهم، بل طلبًا لهلاكهم الأبديّ (مزمور ١٠٨: ٦-١٩)، وليس كما طلب النبيّ ضدّ من سلّم الربّ؛ لأنّنا كما سبق أن قلنا ذلك، بصفة نبوءة أكثر منه رغبة في الانتقام؛ وأخيرًا، ليس كالرسول ضدّ اسكندر النحاس كما شرحنا ذلك بما فيه الكفاية؛ بل على مثال الشهداء الذين تذكرهم الرؤيا، الذين يطلبون الانتقام مع أنّ الشهيد الأوّل بينهم قد سأل العفو عن الذين كانوا يرجمونه.

٧٧- لا يجوز أن تثبط تلك المشكلة همّتنا. وفي الوقائع، من ذا الذي يجرؤ على التأكيد أنّ هؤلاء القدّيسين الرافلين بأثواب الأرجوان يطالبون بالانتقام من الناس ولا يحدُّون من انتشار ملكوت الخطيئة؟ إنّ الانتقام الصحيح للشهداء، انتقام الرحمة والعدالة، يقضّ ملكوت الخطيئة الذي عانوا فيه الأمرّين. إليه يتطلّع الرسول بكلّ قواه قائلًا: «لا تملكنَّ، إذن، الخطيئة في جسدكم المائت» (كولوسي ٢: ٣). ولقد تقوّض سلطان الخطيئة وخرب جزئيًّا بفضل صلاح الطيّبين حين يخضع الجسد للروح؛ وفي جزءٍ آخر من خلال دينونة أولئك الذين يثبتون في خطاياهم وعندما يضعهم العدل جيّدًا في محلّهم حيث لا يستطيعون منذئذٍ أن يؤذوا الأبرار الذين يملكون مع المسيح. أنظروا إلى الرسول بولس! ألا يبدو وكأنّه ينتقم من نفسه للشهيد إسطفانوس قائلًا: «إنّي أصارع، ليس كمن يصارع الجوّ؛ بل أصارع جسدي وأستعبده» (١ قور ٩: ٢٦، ٢٧)، لأنّه كان يلقي أرضًا ويُضعف وبعد أن ينتصر كان ينظّم في ذاته، بدقّةٍ، ما كان ينفع لاضطهاد إسطفانوس والمسيحيّين الآخرين. من ذا الذي، إذن، سوف يبرهن لنا أنّ ذاك التصرّف لم يكن انتقامًا من ذلك النوع الذي يطلبه الشهداء القدّيسون من الربّ، هم الذين استطاعوا، انتقامًا لأنفسهم، أن يطلبوا من الربّ نهاية العالم، الذي عانوا فيه الآلام الكثيرة؟ وعلى هذا النحو، يصلّي الإنسان لأجل أعدائه المؤهّلين للشفاء وليس ضدّ من رفضوا أن يبرأوا؛ لأنّ الله عندما يشفي هؤلاء لا يكون جلّادًا بل هو قاضٍ على قسطٍ كبير من العدل. لا نتردّدنَّ، إذن، في أن نحبّ أعداءنا ونحسنَ إلى من يكرهنا ونصلّي لأجل من يضطهدوننا.

الفصل الثالث والعشرون

٧٨- أمّا ما يتبع بشكل نتيجة فها هو: «لكي تكونوا أبناء أبيكم الذي في السماوات» وينبغي فهمه بالمعنى الذي أورده القدّيس يوحنّا القائل: «فآتاهم سلطانًا يصيرون به أولاد الله» (يوحنا ١: ١٢)، إذ ليس له بالطبيعة سوى ابن وحيد لا يعرف الخطيئة على الإطلاق؛ أمّا نحن فبفضل السلطان الذي أعطيناه، نصبح أبناء الله بقدر ما نُتِمّ أحكامه؛ لذلك فإنّ الرسول يسمّي دعوتنا إلى الميراث الأبديّ تبنّيًا به نستطيع أن نكون مع المسيح وارثين (رومة ٨: ١٧) (غلاطية ٤: ٥) بالولادة الروحيّة، إذن، نصبح أولادًا بالتبنّي في ملكوت الله، لا كغرباء، بل كخلائقه، صنع يديه، بحيث إنّ الكليّ القدرة، وبصنيع له، جعلنا نكونُ يومَ لم نكن؛ وبصنيع ثانٍ، تبنّانا لكي يمتّعنا معه بالمجد الأبديّ كأبناء، وبحسب استحقاقاتنا وهو لا يقول لنا: إصنعوا هذا لأنّكم الأبناء، بل اصنعوا لكي تصيروا الأبناء.

٧٩- وإذ يدعونا، على هذا النحو، بواسطة ابنه الوحيد، فإنّما لكي نتشبّه به؛ لأنّه كما قيل لاحقًا: «إنّ الآب يشرق شمسه على الأخيار والأشرار ويمطر غيثه على الأبرار والفجّار» (متى ٥: ٤٥)، ولا يُفهم بالشمس هنا الكوكب الذي نراه بعيني الجسد بل الحكمة التي وُصِفت «بأنّها ضياء النور الأزليّ» (سفر الحكمة ٧: ٢٦)، كما قيل أيضًا: «شمس البرّ أشرقت عليّ»، وفي موضع آخر: «وتشرق لكم أيّها المتّقون لاسمي شمس البرّ» (ملاخي ٤: ٢). وليكن لكم المطر نشرًا للعقيدة الحقيقيّة التي ظهرت للأخيار والأشرار؛ وكان المسيح أيضًا بشارة للاثنين معًا؛ وإمّا أنّكم تفضّلون فهم الشمس هنا بذلك الكوكب الذي يشرق على أعين الناس الجسديّة، وعلى أعين الحيوانات أيضًا؛

ويعني المطر ذلك الغيث الذي ينمّي الغلال المعدّة غذاءً لأجسادنا وهو التفسير الأقرب إلى الاحتمال، على ما أظنّ، ذلك أنّ الشمس الروحيّة لا تعود تشرق إلّا على الأبرار والقدّيسين استنادًا إلى ما يشكو منه الأشرار الذين قيل عنهم في **الكتاب المقدّس**، في حكمة سليمان: «ولم تشرق علينا الشمس» (سفر الحكمة ٥: ٦). ولن يعود الغيث الروحيّ بعدئذٍ ينزل إلّا على الأخيار، بينما يُشبّه الأشرار الذين قيل فيهم: «وأوصى السحاب ألّا يمطر عليهم مطرًا» (أشعيا ٥: ٦). أيًّا يكن التفسير الذي نختاره فإنّنا نجد فيه أثرًا لصلاح الله العظيم الذي أوصينا بالاقتداء به إن أردنا أن نكون له أبناء. أي هو الإنسان الذي يبلغ به الجحود حدّ التنكّر للتعزية التي يوفّرها لنا في هذه الحياة ذاك المصباح المنظور والغيث الماديّ. إنّنا لنرى أنّ تلك التعزية مشتركة في دنيانا بين الأبرار والخطأة. إنّ المسيح لا يقول: يشرق الشمس على الأخيار والأشرار بل يشرق «شمسه» أي هو الذي خلقها وأقامها وأخرجها من العدم، على حدّ ما جاء في سفر التكوين شأن سائر النيّرات؛ وهو الذي يدّعي لنفسه، بحقّ، أنّه خالق كلّ شيء من العدم، لكي يعلّمنا، أن نعطي أعداءَنا بسخاء ما لم نخلقه بأنفسنا بل جاد به علينا هو نفسه.

٨٠- إذن، من ذا الذي يجد نفسه مستعدًّا لأن يحتمل ضعف الضعفاء لخلاصهم؟ إنّه لمن الأفضل للإنسان أن يحتمل ظلم الآخر على أن يقابله بالمثل وأن يعطي السائل مطلوبه إن أمكن وإلّا فليسدِ إليه النصح عن محبّة؛ إيّاه والصدود عمّن يستقرضه؛ عليه أن يحبّ أعداءَه ويحسن إلى من يبغضه ويصلّي من أجل من يضطهدونه. أجل، من ذا الذي له أن يحقّق كلّ ذلك سوى ذلك الإنسان المشبع رحمة؟ إنّ العمل بهذه الوصيّة كافٍ للتخفيف من هول المصيبة بعونٍ من القائل: «إنّي

أريد رحمة لا ذبيحة» (هوشع ٦ : ٦). لكن يبدو لي مناسبًا إنهاءُ هذا الكتاب، تاركًا للقارئ أن يتنفّس الصعداء فيستعيد قواه للتأمّل في ما يكون موضوع كتاب آخر.

الكتاب الثاني في الطوبيّات الإلهيّة

الفصل الأوّل:
في أنّ مشاهدة الله تستوجب قلبًا نقيًّا

١- إنّنا نباشر درس طهارة القلب في الكتاب الثاني بعد دراسة الرحمة التي أنهينا بها الكتاب الأوّل؛ على أنّ القلب النقيّ هو، نوعًا ما، العين المعدّة لرؤية الله التي يجب على الإنسان أن يُعنى بها ويُبقيها على بساطتها، تجاوبًا مع كرامة ما يمكنها أن تتأمّل فيه، إنّما ليصعب على العين المنقّاة إلى حدٍّ كبير ألّا تدخلها أوساخ ناتجة من أعمالنا الصالحة كمديح الناس، مثلًا إن كان، في حياة السوء، خطرٌ فما معنى حياة الصلاح ورفض المديح، سوى أن يكون الإنسان عدوًّا للعالم الذي يزداد بؤسًا بقدر ما يزداد نفورًا من الحياة البشريّة المستقيمة؟ إذن، إن كان الذين تعايشهم لا يمتدحونك وأنت على استقامة من أمرك، فهُمْ على ضلال؛ أمّا إن امتدحوك فأنت على خطر؛ إلّا إذا كان قلبك على قدر كبير من البساطة والنقاء فلا يدعك، في الخير الذي تعمله، تتوخّى مديح الناس إيّاك وثناءَهم عليك؛ كما وأنّك لا تهوى تهنئة من يتذوّقون الخير ويفعلونه كما لا تهواه لنفسك أنت الذي تعيش باستقامةٍ ولو لم يمتدحوك عليها. وأخيرًا، إلّا إذا أدركت أنّ ثناءهم عليك لا ينفع القائم به إلّا بقدر ما يوجّه شرف سلوكك الحسن، لا إليك، بل إلى الله الذي يتّخذ من كلّ نفسٍ أمينةٍ هيكلًا له مقدّسًا، متمّمًا بذلك قول النبيّ داود: «بالربّ تفتخر نفسي، يسمع البائسون فيفرحون» (مزمور ٣٣: ٣). إذن، إنّه لمن شيم ذي النفس النقيّة أن يصنع الخير

بمعزل عن مدائح الناس، ومن دون النظر إليها في ما يصنعه من خير؛ فلا يعمل الخير استرضاءً للناس وابتغاءً لمديحهم، لأنّ الإنسان الذي ينشد الثناء وحسبُ يتظاهر بالخير؛ إذ إنّه، وهو عاجز عن قراءَة ما في القلب، تأتي مدائحه مغلوطة. إنّ الذين يتصرّفون بهذا الشكل، أي الذين يتظاهرون بالخير قلبٌ مزدوج (مبطّن). وحده يملك قلبًا سليمًا، نقيًّا، ذاك الذي يتعالى عن مدائح الناس. وإذ يصنع الخير فلا يسعى ولا يطلب إلّا رضى ذاك الذي يلج الضمائر. وكلّ ما يصدر عن ضميره النقيّ ولا يبتغي مدائح الناس هو الأجدر بالثناء.

٢- قال الربّ: «إحترزوا ألّا تصنعوا برّكم أمام الناس ليروكم» أي حذار أن تمارسوا البرّ ليراكم الناس إرضاءً لذواتكم. وإلّا فلا أجر لكم عند أبيكم الذي في السماوات». وبالتحديد لا أن يراكم الناس بل أن تصنعوا البرّ لكي يروكم. وفي الواقع ما جرى لما قيل في بداية هذه العظة: «أنتم نور العالم؟ لا تخفى مدينة قائمة على جبل ولا يُضاءُ سراجٌ ويوضع تحت المكيال بل على منارةٍ لينير جميع من في البيت. فليضئ نوركم هكذا أمام الناس ليروا أعمالكم الصالحة؟». ولكنّ الربّ لا يجعل ما سبق هدفًا بل يضيف: «ويمجّدوا أباكم الذي في السماوات». وهنا، ينهى الناس عن تلك الغاية، أي عمل الخير ليرى الناس ما يعملون ولم يزدْ شيئًا يبيّن أنّه لم ينهَ عن عمل الخير، أمام الناس، بل عن فعل الخير ليرى الناس ما يفعلون، أي التصويب على تلك الغاية هدفًا وحيدًا من دون سواه.

٣- والحال أنّ الرسول يقول لنا: «لو كنت أسترضي الناس لما كنت خادمًا للناس» (غلاطية ١ : ١٠). كما يقول في موضع آخر: «فإنّي أنا أيضًا أرضي الجميع في كلّ شيء» (١قور ١٠ : ٣٢). إنّ مَن لا يدركون يرون في ذلك الكلام تناقضًا مع أنّه بقوله إنّه لا يرضي الناس،

يقصد أنّه لا يصنع البرّ إرضاءً لهم، بل لله الذي يريد أن يجتذب إلى محبّته قلوب الناس، عاملًا على إرضائهم. وكان على حقّ في أن يقول إنّه لا يرضي الناس لأنّه بذلك ما كان يرمي إلّا إلى إرضاء الله كما كان يوصي بإرضاء الناس، لا سعيًا إلى مكافأة على أعمال جيّدة يقوم بها، بل لأنّ إرضاء الله لا يتمّ إلّا إذا قدّم الإنسان ذاته مثالًا لمن يبغي خلاصهم؛ ولا أحد يحاول الاقتداء بمن لا يرضيه. وعلى هذا النحو، وكما أنّه من المعقول القول: إنّني أكدُّ وأجدّ بحثًا عن مركب؛ وليس عن مركب أبحث بل عن وطن أبحث، كان باستطاعة الرسول أن يقول: بينما كنتُ أبحث عن إرضاء الناس فلست أرضي الناس بل الله لأنّ غايتي ليست هناك، ولا في ذلك؛ بل إنّي أتوق إلى أن يحذو حذوي أولئك الذين أريد لهم الخلاص. وعلى هذا النحو يقول في كلامه على التقدمات إلى القدّيسين «ولا أبتغي عطاياكم بل الثمار التي تجنونها ربحًا» (فيليبي ٤ : ١٧)، أي أنّني عندما أطلب عطاياكم فليس هذا ما أطلبه بل ثماركم التي تجنونها. لأنّ في ذلك إشارة إلى التقدّم الذي قد أحرزوه على طرق الربّ لأنّهم كانوا يقدِّمون، بطيبة خاطر، ما كان الرسول يطلبه منهم، لا لمصلحته، بل توثيقًا لرباط المحبّة.

٤- وهناك ما يضيفه الربّ قائلًا: «وإلّا لن يكون لكم أجرٌ عند أبيكم الذي في السماوات» (متى ٦ : ١)، وذاك لا يدلّ ببساطة على أنّه يجب أن نحرص على ألّا نسعى إلى الثناء البشريّ مكافأة على أعمالنا الصالحة، متوهّمين أنّنا نجد السعادة فيه.

الفصل الثاني

٥- «إذا صنعت صدقةً فلا تضرب أمامك بالبوق كما يفعل

المراؤون في المجامع والأسواق لكي يكرّمهم الناس» (متى ٦ : ٢)؛ أي، لا تسعَ كالمرائين لأن تُعرف. من الواضح أنّ المرائي لا يحمل في قلبه المشاعر التي يتظاهر بها أمام الناس لأنّه يخفي ويلعب، نوعًا ما، دور شخصٍ آخر، كالممثّلين على المسرح. والحال أنّ من يمثّل في مسرحيّة مأساويّة دور أغاممنون Agamemnon أو دور أيّ شخص آخر تاريخيّ أم أسطوريّ ليس هو ذلك الشخص ذاته بل يتظاهر بأنّه إيّاه، فيسمّى ممثّلًا. إذن، كلّ من كان في الكنيسة أو وضع بشريّ، أيًّا يكن، وأراد أن يظهر على غير حقيقته، هو ممثّل. إنّه يتظاهر بالصلاح من دون أن يكون صالحًا حقًّا لأنّه يضع ربحه في ثناء الناس عليه وذاك ما يستطيع الخبثاء اكتسابه ممّن يخدعونهم بما يظهرون عليه من صلاح؛ وأولئك الناس لا يكافئهم الله العالم بما في قلوبهم؛ وجزاؤهم الوحيد هو العقاب الذي استحقّوه بما هم عليه من المكر، وعنهم يقول الربّ: «هؤلاء قد أخذوا أجرهم من الناس» (متى ٦ : ٢)؛ وبكثير من الحقّ يقال لهم: «إليكم عنّي أيّها المخادعون» (متى ٧ : ٢٣)، لقد حملتم اسمي وما عملتم أعمالي. إذن، إنّ الذين لم يتصدّقوا إلّا حبًّا بتمجيد الناس لهم قد نالوا أجرهم؛ لا لأنّ الناس قد مدحوهم بل لأنّهم تصدّقوا، ابتغاءً للمديح كما ذكرنا سابقًا. والحال، فإنّ مديح الناس لا يجوز أن يسعى إليه فاعل الخير، بل المديح يلحق به لخير من يستطيعون الاقتداء بمن يُمدحون؛ وليس لمصلحة من يُمتدح، ظنًّا منه، أنه حقّق كسبًا من مديحهم إيّاه.

٦- «أمّا أنت، إذا تصدّقت، فلا تعلم شمالك ما تصنع يمينك» (متى ٦ : ٣). إن فهمت باليسرى هنا من يسمّون غير المؤمنين فالظاهر أن لا خطأ عليك لكونك تسعى إلى استرضاء المؤمنين، على الرغم من أنّه يحظّر علينا أن نجعل المديح، أيًّا كان مصدره، هدفًا وأجرًا

لأعمالنا الصالحة. أمّا بشأن الاقتداء بكم ممّن أرضاهم سلوككم فعليكم ألّا تكونوا قدوة للمؤمنين وحسب، بل ولغير المؤمنين حتّى إذا رأوا أعمالكم الصالحة يمتدحونها ويمجّدون الله ويندفعون إلى الخلاص. أمّا إذا فهمتم باليد اليسرى عدوًّا ما، وهذا يعني أنّه على عدوّكم أن يجهل صدقتكم، فلماذا شفى الربّ نفسه أناسًا، بفيض من رحمته، من بين اليهود أعدائه؟ ولمَ احتمل الرسول بطرس حقد أعدائه عليه وعلى سائر تلاميذ المسيح، بعد أن أشفق على الكسيح وشفاه على مقربة من الباب المعروف بالجميل؟ (أعمال ٣: ١-١٠). ومن ثمّ، فإن كان على عدوّنا أن يجهل ما نقوم به من صدقات، فكيف يجب علينا أن نتصدّق عليه إتمامًا للوصيّة القائلة: «إن جاع عدوّك فأطعمه، وإن عطش فاسقه» (رومة ١٢: ٢٠).

٧- وهناك أيضًا رأي ثالث لأناسٍ جسديّين، يبلغ من السخافة والحماقة حدًّا جعلني أترفّع عن ذكره، لو لم أكن عارفًا بأنّه مقبول لدى أناس ليسوا بقليلين، يزعمون أنّ الزوجة هي المقصودة باليد اليسرى، وبما أنّها هي التي تمسك بالمال في العائلة كان على الرجال، على حدّ زعمهم، أن يتصدّقوا على غير علمٍ منها، تحاشيًا للمشاحنات العائليّة كما لو أنّ الرجال وحدهم مسيحيّونَ ولا تعني هذه الوصيّة النساء أيضًا! فما هي إذن اليد اليسرى التي يجب على المرأة أن تخفي عنها صدقاتها؟ أيكون الرجل اليد اليسرى للمرأة؟ إنّه لقولٌ سخيف جدًّا. أو زعم أحدهم أنّ كلًّا من الزوجين هو يد يسرى للآخر؛ حتّى إن قام أحدهما بالتصدّق من المال العائليّ فناقضه الآخر لن يعود زواجهما مسيحيًّا؛ إذ ذاك يصبح كلّ من أراد منهما أن يتمّ وصيّة الصدقة الإلهيّة، طوعًا أم قسرًا، مخالفًا في الوقت عينه لإرادة الله، ومصنّفًا بين الكافرين؛ لأنّ المطلوب في مثل تلك الحال من الزوج المؤمن أن

يستميل الآخر بأخلاقه وحسن سلوكه. ومن ثمّ لا يحقّ لهما أن يكتم الواحد منهما أمام الآخر الأعمال الصالحة التي يجب أن تكون لهما دعوة متبادلة ووسيلة انجذاب إلى الإيمان المسيحيّ، كما لا تجوز السرقة اكتسابًا لرضى الله؛ وإن كان كتمان أمر ما مراعاة لما في الشريك الآخر من ضعف يمنعه من الرضى على الصدقة التي تخلو من الظلم والخطأ؛ مع ذلك يظلّ ذلك التفسير لليد اليسرى مخالفًا لما سوف يطلعنا عليه الفصل التالي، على كلّ حال، ممّا أراده المسيح حول الموضوع.

٨- لقد قال: «إحترزوا ألّا تصنعوا صدقتكم أمام الناس ليروكم وإلّا فلا أجر لكم عند أبيكم الذي في السماوات». إنّه يتحدّث هنا على البرّ، بوجهٍ عامّ، ثمّ يدخل في التفاصيل. وفي الواقع لا فرق بين البرّ والصدقة؛ لأنّ الصدقة جزءٌ من البرّ. ولهذا فإنّه يضيف للحال: «إذا تصدّقت فلا تنفخ أمامك بالبوق كما يفعل المراؤون في الجوامع والطرقات لكي يمجّدهم الناس» (متى ٦ : ٢). وهذا يتّصل بما قيل سابقًا: «حذار من أن تعملوا برّكم أمام الناس ليروكم» كما جاء تاليًا: «الحقّ الحقّ أقول لكم لقد أخذوا أجرهم» وهذا يتعلّق بما ورد في النصّ السابق الذي تضمّن ما يلي: «وإلّا فلن يكون لكم أجرٌ عند أبيكم الذي في السماوات». ثمّ يتابع قائلًا: «أمّا أنت فإذا صنعت صدقة» وما تعني الكلمة «أمّا أنت إذا صنعت صدقة». أي بخلافهم؟ وبمَ يأمرني إذن؟ «أمّا أنت فإذا صنعت صدقة فلا تعلم شمالك ما تصنع يمينك» إذن فالخبثاء يعملون بطريقة تعرف من خلالها شمالهم ما تصنع يمينهم. وبالتالي فإنّه يحظّر عليك أن تعمل ما يلامون عليه وما يقصدون منه فهو مديح الناس إيّاهم. فالمعنى الأقرب طبيعيًّا لكلمة «اليد اليسرى» يبدو وكأنّه اللذّة بالمديح بيد أنّ اليمنى تعني النيّة بإتمام الوصيّة الإلٰهيّة.

وعليه، عندما ينساب طلب المجد البشريّ إلى ضمير من يتصدّق إذ ذاك تعرف اليسرى ما تصنعه اليمنى فالعبارة: «لا تعرف شمالك ما تصنع يمينك» تعني أنّ الرغبة في المديح لا تجوز أن تتسلّل إلى ضميرك عندما تسعى إلى القيام بما تأمر به الوصيّة الإلٰهيّة بشأن الصدقة.

٩- «لتكن صدقتك خفيّة» (متى ٦ : ٤) وماذا تعني خفيّةً إن لم تكن في الضمير الصالح عينه الذي لا يستطيع الناس أن يروه ولا يمكن التعبير عنه بالكلام؟ والحال أنّ كثيرين يكذبون بطرق متنوّعة. إذن، إن كانت اليد اليمنى تعمل خفية في الداخل، فلليسرى العمل في الخارج، في كلّ ما هو مرئيّ وزمنيّ. وعليه، يجب أن تكون صدقتك في ضميرك من دون سواه حيث الكثيرون يقومون بها تلقائيًّا عندما ينقصهم المال، ولا شيء آخر يتصدّقون به على الفقير. غير أنّ الكثيرين يعملونها في الخارج بمعزل عن الباطن، وطمعًا بغاية زمنيّة يتوقون إلى أن يظهروا كرحماء؛ هؤلاء يجب الظنّ بهم أنّ يسراهم وحدها تعمل. هناك أيضًا من يلتزمون النقطة الوسطى بين الطرفين فيتصدّقون متّجهين بنيّتهم إلى الله من دون أن تخلو غايتهم من رغبة في الثناء وأيّ شيء آخر عابر وسريع العطب. أمّا الربّ الذي يأبى على اليسرى التدخّل في أيّ عمل من أعمال اليمنى فيمنع بقوّة وحزم أيّ عمل لها فينا؛ ليس كي نتحاشى الصدقة لغاية زمنيّة وحسب، بل، وبينما نعملها تبقى نيّتنا مصوّبة إلى الله بحيث يحرَّم على كلّ منفعة خارجيّة من أن تنضمّ إليها أو تختلط بها. لأنّ المطلوب هو تنقية القلب الذي لن يعرف النقاء إلّا إذا كان بسيطًا. ولكن، كيف له أن يكون بسيطًا وهو يخدم سيّدين إن لم يطهّر عينيه بالتأمّل في الخيور الأبديّة ويتركهما في ظلمةٍ أمام التوافه الآيلة إلى الموت؟ إذن، لتكن صدقتك خفيّةً وأبوك الذي يرى الخفايا يجازيك علانيةً. ولا شيء أصحُّ وأعدل من ذلك. أمّا إن انتظرت مكافأة لك من

ذاك الذي وحده يسبر ضمائر الناس فحسبك إذ ذاك شهادة ضميرك كسبًا لذلك الجزاء. نسخٌ لاتينيّة كثيرة تتضمّن ما يلي: «وأبوك الذي يرى الخفايا يجازيك أمام الناس». ولكن بما أنّ تعبير «أمام الناس» غير موجود في النسخ اليونانيّة الأقدم من حيث الزمن، فلم نرى أنّه يجب التوقّف عليها؟

الفصل الثالث

١٠- وقال: «عندما تصلّون فلا تكونوا كالمرائين؛ فإنّهم يحبّون الصلاة قائمين في المجامع وملتقى الشوارع ليراهم الناس» (متى ٦ : ٥). وهنا أيضًا لا يخطر عليك أن تكون على مرأى من الناس بل أن تعمل ليراك الناس؛ وإنّه لمن النافل ترداد الكلام طالما أنّ القاعدة قد أعطيت للمرّة الواحدة خوفًا من أن يرانا الناس، وتجنّبًا من أن يعرفوا ما نعمل؛ بل ألّا نسعى من خلال رؤيتهم كسبًا للمكافأة. إنّ الربّ نفسه يستعمل هنا التعابير ذاتها، مضيفًا إليها كما في المرّة الأولى: «الحقّ أقول لكم إنّهم قد قبلوا أجرهم» مبيّنًا، من خلال كلامه، رفضه للمكافأة التي يسعى إليها الجهّال من مدائح الناس إيّاهم.

١١- وقال: «أمّا أنتم فإن صلّيتم فادخلوا مخدعكم» (متى ٦ : ٦)، وما المخدع ذاك سوى القلب على حدّ ما جاء في سفر المزامير؟ قائلًا: «تكلّموا في قلوبكم على مضاجعكم واعتصموا بالصمت» (مزمور ٤ : ٥)، ثم ادخل حجرتك وأغلق عليك بابها وصلِّ إلى أبيك الذي في الخفية وأبوك الذي يرى في الخفية يجازيك علانية» (متى ٦ : ٦). إنّ دخول المخدع لَبسيط جدًّا؛ حتّى إن تركنا الباب مشرّعًا للثقلاء، تسلّلوا إليه من الخارج واحتلّوه؛ لقد قلنا سابقًا إنّ الخارج يعني كلّ ما

هو زمنيّ ومرئيّ يستطيع أن يدخل إلينا ويجتاح فكرنا، من خلال حواسّنا الجسديّة، فتعكّر صفو صلواتنا مجموعةٌ من التخيّلات الباطلة. ولهذا فإنّ إغلاق الباب ضروريّ، أي بمقاومة الإحساس الجسديّ، لترتفع صلاتنا الروحيّة الصِرف إلى الآب من أعماق القلب حتّى نصلّي إلى الآب بالخفية «وأبوكم السماويّ يرى الخفايا ويجازيكم»؛ من هناك وَجب علينا أن نختم لأنّ الربّ لا يقصد هنا الطلب إلينا أن نصلّي بل يريد أن يعلّمنا كيف نصلّي. كما أنّه لم يهدف، في ما سبق، إلى أن يوصينا بالصدقة بل علّمنا الروحيّة التي يجب أن نتصدّق بها لأنّ المطلوب طهارة القلب التي لا يمكن الحصول عليها إلّا من خلال تصويب النيّة الوحيدة، البسيطة إلى الحياة الأبديّة من خلال الحبّ الأوحد والخالص للحكمة.

١٢- «وإذ تصلّون فلا تكرّروا الكلام، عبثًا، مثل الوثنيّين الذين يظنّون أنّهم إذا أكثروا الكلام يُستجاب لهم» (متى ٦ : ٧). وكما أنّ الخبثاء يعرفون من خلال التظاهر في صلاتهم، حصولًا على تأييد الناس، فالوثنيّون يتخيّلون أنّهم بكثرة كلامهم يُستجاب لهم. وفي الواقع فإنّ الإكثار من الكلام يصدر عن الوثنيّين الذين يكثرون من الكلام ويُهملون تنقية القلوب ويثرثرون، أملًا في استعطاف الله، مقتنعين بأنّ الله كالإنسان تستهويه الكلمات. «فلا تتشبّهوا بهم»، يقول المعلّم الحقيقيّ الأوحد، «لأنّ أباكم عالم بما تحتاجون إليه قبل أن تسألوه». والحلّ فإن كانت الحاجة إلى كلام كثير لتعليم الجاهل وتثقيفه فما هي الحاجة لمن يعرف كلّ شيء، هو الذي يحكيه كلّ موجود لمجرّد أنّه موجود وحسب؛ ويبرز كحدثٍ تامّ، هو الذي لا يخفى على علمه ولا على حكمته. من يعرف المستقبل شيء، هو الذي كلّ شيء، بالنسبة إليه، يزول، وما سوف يزول هو حاضر بشكل ثابت؟؟

١٣- ولكن، لمّا كان عليه أن يعلّمنا أن نصلّي بكلمات، وإن قليلة، يمكننا أن نسأل عن حاجتنا إلى هذا القليل من الكلام، من يعرف كلّ شيء قبل أن يحدث، ويعرف، بحسب قوله، ما هو ضروريّ لنا قبل أن نسأله؟ إنّنا نجيب، بادئ ذي بدءٍ، بأنّ علاقتنا بالله ليست بالكلام، حصولًا على ما نبتغيه، بل بما في نفسنا، من خلال توجيه فكرةٍ لنا مقرونة بحبٍّ نقيّ وشعور رقيق؛ فضلًا عن أنَّ الربّ قد علّمنا الأمور بالكلام، حتّى إذا عهدنا بالكلمات إلى ذاكرتنا، استعدناها في وقت الصلاة؛ إنّ الله مستعدٌّ دومًا للعطاء؛ إنّما لسنا دومًا على استعداد لتقبّل عطاياه.

الفصل الرابع

١٤- بوسعنا أن نلحّ ونقول: إن كان الله عارفًا بما هو ضروريّ لنا فلِم الحاجة إلى الصلاة بالكلام أو بالأشياء؟ إنّها لضروريّة، لكونها تطهّر القلب وتطمئنه وتجعله أكثر استعدادًا لقبول الهبات السماويّة التي تأتينا روحيًّا؛ ولا يستجيب لنا الله لأنّه يطمع بصلواتنا، هو الدائم الاستعداد لكي يهبنا نوره؛ لا ذاك النور المنظور بل النور غير المنظور، الروحيّ الذي يستطيع العقل أن يدركه؛ غير أنّنا لسنا دومًا على استعداد لقبوله حين نميل إلى جهة أخرى، تحت تأثير الأمور الزمنيّة التي تلقي علينا بظلّها. فالصلاة، إذن، توجّه منّا القلب إلى ذاك الدائم الاستعداد لعطائنا، إن كنّا أهلًا لقبول نعمه؛ وتتنقّى بصيرتنا من الشهوات الزمنيّة وتصبح قادرةً على قبول النور البسيط الذي يشعُّ من فوق، بلا انقطاع ولا تغيير، فتقبله من دون انزعاج وبفرح لا يوصف، فتكمل به حقًّا سعادتها.

١٥- لكنّ الوقت قد حان لنرى ما هي الصلاة التي يفرضها ذاك الذي منه نتعلّم ما يجب أن نطلب لنناله. إنّه يقول: «هكذا أنتم صلّوا (أبانا الذي في السماوات، ليتقدّس اسمك، ليأتِ ملكوتك، لتكن مشيئتك كما في السماء كذلك على الأرض. أعطنا اليوم خبزنا اليوميّ واغفر لنا ذنوبنا كما نحن نغفر لمن لنا عليه ولا تعرضنا للتجربة بل نجّنا من الشرّير)» (متى ٦: ٩-١٣). «أبانا الذي في السماوات ليتقدّس اسمك ليأت ملكوتك ليكن ما تشاء في الأرض كما في السماء ارزقنا اليوم خبز يومنا وأعفنا ممّا علينا فقد أعفينا نحن أيضًا من لنا عليه ولا تعرّضنا للتجربة بل نجّنا من الشرّير» (متى ٦: ٩-١٣). في كلّ مرّة نصلّي، علينا أوّلًا أن نستعطف من نسأل، ثمّ نعرض عليه حاجتنا. وفي الواقع، المديح يسبق الاستعطاف؛ والمديح هو ما يجب أن نبدأ به عادةً صلاتنا ولهذا يأمرنا الربّ أن نقول ببساطة: «أبانا الذي في السماوات». ما أكثر ما قيل من مديح الله؛ إذ إنّ كلّ من يقرأ الكتب المقدّسة يجد، تحت أشكال مختلفة، كلامًا في مديح الله؛ إنّما لسنا نجد في أيّ مكانٍ منها أمرًا لإسرائيل بأن يقول «أبانا» أو بأن يصلّي إلى الله الآب؛ بل أوصي إسرائيل بأن يتوجّه إلى الله كسيّد يأمر عبيده؛ أي لأناسٍ ما زالوا يعيشون بالجسد. إنّي أتكلّم على زمنٍ كانوا يتلقّون فيه وصايا الشريعة والأمر بحفظها؛ لأنّ الأنبياء يشيرون إلى أنّ الله كان قادرًا على أن يكون لهم أبًا لو لم يثوروا عليه ويبتعدوا عن وصاياه، كما جاء، على سبيل المثل في النصّ التالي: «إنّي ربّيتُ بنين ورفعتهم لكنّهم تمرّدوا عليّ» (أشعيا ١: ٢). وأيضًا: «قد قلتُ إنّكم آلهة، وبنو العليّ كلّكم» (مزمور ٨١: ٦). كما في نصّ آخر: «فإن كنت سيّدًا فأين مهابتي؟ وإن كنت أبًا فأين كرامتي؟ (ملاخي ١: ٦). وكلام آخر كثير يُلام فيه اليهود على إخلالهم بالعهود ورفضهم لأن يكونوا أبناء الله

(يوحنا ١: ١٢)، على أنّ بولس الرسول يقول: «ما دام الوارث قاصرًا فلا يختلف عن العبد بشيء» (غلاطية ٤: ١-٦)، ثمّ يذكّر بأنّنا قبلنا روح البنوّة الذي به نصرخ أبّا «أيّها الآب» (روما ٨: ١٦-٢٣).

١٦- وبما أنّ دعوتنا إلى الميراث الأبديّ لنكون وارثين مع المسيح ونصير أبناء بالتبنّي ليست ثمرة استحقاقاتنا بل بنعمة من الله، فإنّنا نشير إلى تلك النعمة في مطلع صلاتنا قائلين: «أبانا» فيثير ذاك الاسم فينا الحبّ والحنوّ معًا؛ وهل أحبّ على الأولاد من أبيهم؟ وهل أدعى إلى الحنوّ في الصلاة إلى الله من قولنا له أبانا؟ مشفوعة ببعض الرجاء، حصولًا على ما نطلبه، ما دام الله يمنحنا إنعامًا جزيلًا بأن ندعوه «أبانا»؟ وما تراه يرفض أن يعطي أبناءه بعد أن جعلهم له أبناء! ألا تثير في القلب هذه الكلمات «أبانا» اهتمامًا لئلّا يظهر غير جدير بأب هكذا عظيم؟ وفي الواقع، إذا سمح عضو في مجلس الشيوخ طاعنٌ في السنّ لواحدٍ من عامّة الشعب بأن يدعوه أبًا له، فلا شكّ من أن يعتري ذلك الإنسان خوفٌ فلا يكاد يجرؤ على أن يدعوه أبًا، وهو يفكّر بضِعةِ محتده وفقره وبؤسه؛ وكم أحرى بالإنسان أن يخاف من أن يدعو الله أبًا له، إن كانت نفسه وسخةً إلى ذلك الحدّ وسلوكه أثيمًا، بحيث ينفر الله منه، بشكلٍ مبرَّر أكثر من نفور شيخٍ في مجلس الشيوخ من شحّاذٍ يرتدي ثيابًا بالية؟ على أنّ ذاك الغنيّ لا ينفر إلّا من بؤس ذلك المستعطي؛ وقد يصل إليه، هو ذاته، نتيجة هشاشة أمور هذا العالم، في حين أنّ الله لا يستطيع أبدًا أن يتّخذ مثل ذلك الموقف السيّئ. إذن، الشكر لله الرحيم الذي يُصرُّ على أن نتّخذه لنا أبًا: وذاك يمكن الحصول عليه بدون ثمنٍ البتّة، وبفعل إرادة حسنة من دون سواها. وعلى أغنياء هذا الدهر والنبلاء فيه، الذين أصبحوا مسيحيّين، ألّا يتعالوا على الفقراء والمساكين لأنّهم يقولون مع جميع الآخرين فيه:

«أبانا» وهذا ما قد لا يمكنهم أن يقوموا به، بحقٍّ وتقوى، إن لم يتعارفوا كأخوة مع سائر الناس.

الفصل الخامس

١٧- على الشعب الجديد، شعب العهد الجديد، المدعوّ إلى الميراث الأبديّ، أن يتّخذ صوت العهد الجديد ويقول: «أبانا الذي في السماوات» أي الذي في القدّيسين والأبرار، لأنّ الله لا يحدُّه مدًى. لا شكّ في أنّ السماوات هي الجرمُ الأفضل في هذا الكون ولا يمكن أن تكون إلّا في الفضاء حتّى إذا خيّل للإنسان أنّ الله يقيم فيها محلّيًا كما في المكان الأعلى من هذا العالم، وجب علينا أن نقول إنّ للطيور قيمة أكثر ممّا لنا إذ قد تعيش أقرب منّا إلى الله؛ على أنّه لم يقل الكتاب إنّ الله هو أقرب إلى الناس الساكنين في الأعالي أو إلى المقيمين في الجبال؛ بل قيل: «إنّ الله قريب من منسحقي القلوب» والتوبة ميزة التواضع. وكما أنّ الخاطئ يدعى ترابيًّا حين يقال له: «إنّك تراب وإلى التراب تعود» (سفر التكوين ٣: ١٩) وهكذا، يمكننا، بخلاف ذلك، أن ندعو البارّ سماءً لأنّه قيل للأبرار: «لأنّ هيكل الله مقدّس وهو أنتم هيكل الله» (قور ٣: ١٧). إذن، إن كان الله يسكن في هذا الهيكل وكان الأبرار ذلك الهيكل فيحقّ لنا أن نشرح عبارة: «الذي في السماوات بالذي في القدّيسين»، وتلك مقارنة صحيحة بقدر ما نستطيع أن نقول بأنّ المسافة، روحيًّا، الفاصلة ما بين الخطأة والأبرار، هي بمقدار ما بين السماء والأرض.

١٨- وتعبيرًا عن تلك الفكرة، نتّجه حين نصلّي إلى الشرق، نقطة انطلاق السماء؛ لا لأنّ الله يقيم فيها، متخلّيًا عن سائر أجزاء العالم،

هو الحاضر في كلّ مكان؛ وليس بشكل موضعيّ، بل بقدرة جلاله؛ وحده الروح مدعوٌّ إلى التوجّه إلى الطبيعة الأكمل، أي إلى الله، لأنّ جسده وهو أرضيّ يوجَّه إلى الجسم الأكمل، أي السماء. إنّه، والحقّ يقال، لمناسبٌ ومفيدٌ جدًّا لتقدّم الديانة، أن يكون للجميع، بكبارهم وصغارهم، أفكار صحيحة عن الله. ولهذا يجب أن نحتمل من لا يزالون أسرى الجمالات المنظورة، عاجزين عن أن يتصوَّروا ما ليس جسديًّا؛ وإذ يؤثرون حتمًا السماء، لا الأرض، يعتقدون أنّ الله الذي ما زالوا يتّخذون عنه فكرة ماديّة يسكن السماء من دون الأرض حتّى إذا توصّلوا، يومًا ما، إلى أن يدركوا أنّ النفس تفوق قدرًا السماء، يبحثون عن الله في الروح، لا في جسد؛ وإن كان سماويًّا؛ وحين يعرفون المسافة الفاصلة بين الأبرار والخطأة، هم الذين ما تجرّأوا بأفكارهم الجسديّة، أن يجعلوا مسكن الله على الأرض بل في السماء، إذ من الآن فصاعدًا وبعد أن استناروا فهمًا وإيمانًا، يبحثون عنه في نفوس الأبرار، لا في نفوس الخطأة. إذن، وبحقّ، يجب أن نفهم الكلمات هذه: «أبانا الذي في السماوات» أنّه في قلوب الأبرار يسكن كما في هيكله. إنطلاقًا ممّا تقدّم فكلّ من يصلّي يتوق إلى أن يرى ذاك الذي يدعوه متّخذًا من قلبه مسكنًا له. وانطلاقًا من ذلك التطلّع الشريف يكون أمينًا للبرّ، الهديّة الأكثر أهليّة لسكنى الله، بثباتٍ، في النفس.

١٩- «ليتقدّس اسمُك»

لنرَ الآن ما يجب أن نطلب: لقد رأينا من ذا الذي نطلب منه وعرفنا مقرّ سكناه. على أنّ السؤال الأوّل بين كلّ ما نسأل هو التالي: «ليتقدّس اسمك» وهذا السؤال لا يعني أنّ اسم الله غير مقدّس إنّما نسأل أن يقدّسه الناس، أي أن يعرفوا أنّ الله قدّوس ولا أقدس منه فيخشوا إهانته. ولأنّه

كتب: «معروف الله في يهوذا واسمه عظيم في إسرائيل» (مزمور ٧٥: ١)؛ ليفهم الجميع أنّ الله ليس صغيرًا هنا وعظيمًا هناك، قدّوس على كلّ شفة ولسان. وذاك هو ما يحدث الآن حين يدعو الإنجيل إلى احترام اسم الله الواحد بواسطة ابنه عندما ينادى به في كلّ الأمم.

الفصل السادس

٢٠- «ليأتِ ملكوتك» ويتابع الربّ قائلًا «ليأتِ ملكوتك». يعلّمنا الربّ نفسه «أنّ يوم الربّ آتٍ يوم يُنادى بالإنجيل في كلّ الأمم»، وذاك يتعلّق بتقديس اسم الله فالكلمات: «ليأتِ ملكوتك» لا تعني أنّ الله لا يملك الآن؛ ولربّ قائلٍ يقول إنّ ذاك يعني «ليأتِ» إلى الأرض؛ كما لو أنّ الله لم يكن يملك على الأرض ولا ملك عليها منذ خلق العالم. إنّ الكلمة «ليأت» تعني، إذن، ليظهر للناس؛ فكما أنّ النور وإن يكن حاضرًا هو غير موجود بالنسبة للعميان ولا للذين يغلقون عيونهم، هكذا هو ملكوت الله وإن يكن قائمًا على الأرض فهو غير موجود لمن يجهلونه. ولن يبقى ممكنًا على أحد أن يجهل ملكوت الله، عندما يأتي ابنه الوحيد من السماء بطريقة، ليست روحيّة وحسب، بل مرئيّة، وكإنسان ليدين الأحياء والأموات. بعد تلك الدينونة، أي عندما يتمّ فصل الأبرار عن الأشرار، يسكن الله في الأبرار ولن يعودوا بحاجة إلى أن يعلّمهم إنسان بل جميعهم، كما كتب، «يكونون تلاميذ الله» (يوحنا ٦: ٤٥)، وتكمل السعادة في القدّيسين إلى الأبد؛ وعلى مثال الملائكة في السماء، الرافلين بالسعادة والقداسة، المستنيرين بالله وحده، وبالتالي حكماء وسعداء بحسب ما وعد الربّ نفسه أخصّاءه قائلًا: «في القيامة سوف يكونون كالملائكة في السماء» (متى ٢٢: ٣٠).

٢١– ومن ثمّ، وبعد ذلك الطلب الذي به نقول: «ليأتِ ملكوتك»، يتابع «لتكن مشيئتك كما في السماء كذلك على الأرض» (متى ٦: ١٠)؛ فكما أنّ الملائكة ينفّذون إرادتك في السماء من حيث إنّهم بك يستمسكون ويتعلّقون، فلا يغشى حكمتهم ضلال، ولا يعكّر سعادتهم شقاء، فإنّنا نتمنّى عليك أن تحقّقها في قدّيسيك على الأرض. ذوو الأجسام الترابيّة والذين يجب عليهم أن يؤخذوا من التراب حتّى بعد أن يتحوّلوا يصبحون أهلًا للسكنى في السماء. ذاك هو معنى النشيد الملائكيّ القائل: «المجد لله في العلى وعلى الأرض السلام لذوي الإرادة الصالحة» (لوقا ٢: ١٤). وإنّهم ليسألون أن تتحقّق فينا إرادة الله السابقة لإرادتنا الصالحة المتجاوبة مع إرادته كما هي في ملائكة السماء. إنّ العبارة «لتكن مشيئتك» تحمل أيضًا المعنى التالي وهو أنّنا نسألك أن تكون وصاياك معمولًا بها في الأرض كما في السماء؛ أي يطيعها الناس كما يطيعها الملائكة. لأنّ العمل، بموجب إرادة الله، يعني الطاعة لوصاياه على الأرض كما في السماء؛ أي كما الملاك هكذا الإنسان، على ما يقول لنا الربّ: «طعامي هو أن أعمل بمشيئة من أرسلني» (يوحنا ٦: ٣٨) ويقول أيضًا: «إنّ من يعمل مشيئة أبي الذي في السماوات فذاك هو أخي وأختي وأمّي» (متى ١٢: ٤٩–٥٠). إذن، تتمّ مشيئة الله، بالتأكيد، في الذين يحقّقونها؛ إنّهم يتمّونها؛ ولا يعملون لكي يريد الله، بل يعملون ما يشاء الله؛ أي يعملون بحسب مشيئته.

٢٢– وهناك أيضًا معنى آخر للعبارة: «لتكن مشيئتك على الأرض كما في السماء» أي «لتكن أيضًا في الخطأة كما في الأبرار والقدّيسين»، ويمكن أن يعطى ذاك الكلام معنيَين: إمّا أن نصلّي لأجل أعدائنا، الخارجين على الإيمان القويم، الذين ينزعجون من انتشار

الاسم المسيحيّ والكاثوليكيّ، فتعني الكلمات: «لتكن مشيئتك كما في السماء كذلك على الأرض»؛ وإمّا أن يعمل الخطأة بحسب مشيئتك كالأبرار وأن يتوبوا، وإمّا أن يُعامَل كلّ إنسان بحسب ما يستحقّ: وذاك هو ما سوف يحصل في الدينونة الأخيرة، حيث يكافأ الأبرار ويُدان الخطأة بالهلاك فيُفرَز الخرافُ عن الجداء (متى ٢٥: ٣١-٤٦) ويُفهم بالسماء والأرض الروح والجسد.

٢٣- إنّه لتفسير منطقيّ، يتلاءم، بالعكس، تمامًا مع إيماننا ورجائنا، بحيث نعني بالسماء والأرض الروح والجسد. وعندما يقول الرسول: «هاءَنذا عبدٌ بالعقل لشريعة الله وعبدٌ بالجسد لشريعة الخطيئة» (رومة ٧: ٢٥)، نرى أنّ مشيئة الله تتمُّ بالعقل أي بالروح. ولكن عندما يُقضى على الموت بالغلبة، ويلبس هذا الجسد المائت عدم الموت، الذي سيصير لدى قيامة الأجساد هذا التبدّل الذي وُعد به الأبرار، بحسب ما علّم الرسول نفسه (١قور ١٥: ٥٣-٥٤)، حينئذٍ تتمّ مشيئة الله، على الأرض كما في السماء؛ وكما أنّ الروح لن تقاوم الله بل ستطيعه وتعمل بمشيئته، كذلك فإنّ الجسد لن يقاوم العقل أو النفس، الرازحة الآن تحت عاهات الجسد والمنقادة إلى أهوائه اللحميّة، إذ ذاك يتحقّق السلام التامّ في الحياة الأبديّة، بحيث نستطيع، لا أن نريد الخير وحسبُ، بل أن نصنعه؛ لأنّه كما يقول الرسول الآن تكمن الإرادة فيّ أمّا عمل الخير فلا» (رومة ٧: ١٨)، لأن مشيئة الله لم تتحقّق بعدُ على الأرض كما في السماء، أي في الجسد كما في الروح؛ إنّ مشيئة الله تتحقّق فينا نحن الأشقياء عندما نتحمّل، في الجسد، الموت الذي استحقّته طبيعتنا، بفعل الخطيئة؛ إنّما يجب أن نطلب إتمام تلك المشيئة على الأرض كما في السماء؛ وكما أنّنا نطيب نفسًا بشريعة الله في إنساننا الباطنيّ (رومة ٧: ١٨ و٢٢)، كذلك عندما

يتحوّل جسدنا لا يعود أيّ جزءٍ منّا يكوّن عائقًا أمام تلك اللذّة، سواءٌ أكان ذلك بآلامٍ أو بملذّات أرضيّة.

٢٤- وإنّنا لنستطيع أيضًا، من دون أن نعادي الحقيقة، أن نعتبر العبارة: «لتكن مشيئتك على الأرض كما في السماء» بأنّها تعني: في الكنيسة كما في سيّدنا يسوع المسيح؛ في الخطيئة كما في الختن الذي أتمّ مشيئة الآب. إذن، يمكن اعتبار الأرض والسماء، نوعًا ما، بمنزلة زوجين، كالرجل والمرأة، لأنّ السماء تخصب الأرض.

الفصل السابع: أرزقنا اليوم خبز يومنا

٢٥- وها هو الطلب الرابع: «أرزقنا اليوم خبز يومنا» (متى ٦: ١١). يعني هنا الخبز اليوميّ كلّ ما هو ضروريّ لسدّ حاجات هذه الحياة والذي يُضيف الربّ بشأنه قائلًا: «أرزقنا اليوم» عملًا بما أوصى به قائلًا: «لا تقلقوا للغد» (متى ٦: ٣٤) وهو إمّا سرّ جسد المسيح الذي نقتبله كلّ يوم، وإمّا القوت الروحيّ، الذي يقول لنا عنه الربّ: «إعملوا للطعام الذي لا يفنى» (يوحنا ٦: ٢٧)، وأيضًا: «أنا الخبز النازل من السماء» (يوحنا ٦: ٢٧ - ٤١). إنّما نستطيع أن نتفحّص أيًّا من المعاني الثلاثة هو الأكثر احتمالًا. ولقد نُعجب حين نرى أنفسنا مضطرّين إلى أن نصلّي، حصولًا على ما هو ضروريّ لحياة الجسد، كالطعام واللباس، مثلًا، عندما يقول لنا الربّ: «لا تهتمّوا لنفوسكم بما تأكلون ولا لأجسادكم بما تلبسون» (لوقا ١٢: ٢٢)، وهل يمكننا ألّا نقلق في ما نسأل وانتباه النفس في الصلاة يجب أن يتركّز على الغاية المطلوبة في السؤال؟ والأمر مرتبطٌ بما قاله الربّ بشأن الغرفة الموصدة الأبواب، بحسب ما جاء في كلامه: «أطلبوا أوّلًا ملكوت الله

وبرّه وذلك كلّه تُزادوه» (متى ٦ : ٣٣). طبعًا، إنّ الربّ لم يقل: أطلبوا أوّلًا ملكوت الله وبعده اسعوا إلى هذا؛ بل قال: «وذلك كلّه تزدادونه» غير أنّني لا أرى كيف يمكن أن يقال عن إنسانٍ إنّه لا يسعى، بوعي كلّي، إلى ما يطلبه من الله.

٢٦- أمّا بشأن جسد الربّ ومنعًا لاعتراض الشرقيّين الكثيرين الذين لا يشتركون يوميًّا في وليمة الربّ، مع أنّه يسمّى الخبز اليوميّ، ولكي يلتزموا الصمت فلا يدافعون عن وجهة نظرهم، لأنّهم على حقّ في ما يفعلون، استنادًا إلى السلطة الكنسيّة التي لا يعترض رؤساؤها على ما يفعلون ولا يُتّهمون بالمخالفة، برهانًا على أنّهم في تلك الأصقاع لا يعطون الخبز اليوميّ هذا المعنى كيلا ينظر إلى من لا يتناولونه يوميًّا، كخطأةٍ آثمين، وتلافيًا لكلّ جدل حول هذا الموضوع فنقول إنّه يجب، أقلّه، على كلّ إنسان يفكّر أن يرى بوضوح أنّ الله قد أعطانا نوعًا من الصلاة لا نستطيع أن نضيف إليه أو نخفّف منه من دون أن نخالفه. فمن ذا الذي يجرؤ، والحالة هذه، على أن يجزم أنّنا لسنا ملزمين بتلاوة الصلاة الربيّة سوى مرّة في النهار أو مرّتين أو ثلاث، ساعة نشترك في تناول جسد الربّ، من دون بقيّة النهار؟ وإذ ذاك لا نعود قادرين على أن نقول «أعطنا اليوم» ما سبق أن أخذناه أو قد نضطرّ ملزمين إلى اقتبال هذا السرّ في أواخر النهار.

٢٧- لم يبقَ لنا، إذن، إلّا أن نفهم، بالخبز اليوميّ، القوت الروحيّ، أي الوصايا الإلهيّة التي يجب علينا أن نتأمّل فيها ونمارسها، كلّ يوم؛ ويشير الربّ إلى ذلك بقوله: «لا تعملوا للقوت الفاني» ويسمّى هذا القوت الآن «اليوميّ» ما دامت هذه الحياة مستمرّة مع تعاقب الليل والنهار. وفي الواقع ما دامت انفعالات النفس في صعود

وهبوط، تارةً إلى الروحانيّات وطورًا إلى الانحرافات الجسديّة، فهي شبيهة بكائنٍ، تارةً يُصاب بتخمةٍ وطورًا يعضُّه الجوع؛ فإنّها تظلّ بحاجة إلى خبز يوميّ تسدّ به جوعها وتستعيد قواها المنهارة. وعلى هذا النحو، ما دام جسدنا في هذه الحياة، أي قبل أن يتحوّل، يعوّض بما يتناوله من طعام، ما يخسر من طاقات، كذلك هي نفسا التي تشكو خسرانًا بسبب التجاذبات الزمنيّة التي تقصيها عن الله، تحتاج إلى أن تتجدّد بالاغتذاء من الوصايا. على أنّنا نقول: «أعطنا اليوم» وما زلنا نستطيع أن نقول «اليوم» أي طوال حياتنا الفانية لأنّ القوت الروحيّ بعد هذه الحياة سوف يشبعنا مدى الأبديّة، فلا نعود قادرين على القول: «خبز يومنا»، لأنّ حركة الوقت التي تتعاقب فيها الأيّام وتتيح لنا أن نقول «كلّ يوم» لن تعود قائمة. علينا، إذن، أن نفهم عبارة «أعطنا اليوم» كما نفهم قول المزمور: «اليوم إن سمعتم صوته» (مزمور ٩٤: ٨). وبحسب الرسالة إلى العبرانيّين فإنّه يعني ما يلي: «ما دام الزمن يُدعى اليوم» (عبرا ٣: ١٣). أمّا إذا أراد أحدهم أن يرى في السؤال طلبًا لقوت الجسد الضروريّ أو لسرِّ جسد الربّ فعليه أن يقبل بالمعاني الثلاثة في الوقت عينه: أي أنّنا نسأل، في آنٍ واحد، خبزنا اليوميّ، الضروريّ لجسدنا والسرّ المنظور وغير المنظور لكلمة الله.

الفصل الثامن

٢٨- ثمّ يلي الطلب الخامس القائل: «واغفر لنا ذنوبنا كما نحن نغفر لمن أساء إلينا»، أو «واعفنا ممّا علينا فقد أعفينا نحن أيضًا مَن لنا عليه» (متى ٦: ١٢).

من الواضح أنّ كلمة دَيْن هنا تعني خطايا لأنّ الربّ نفسه يقول:

«*لن تخرج منه حتّى تؤدّي آخر فلس*» (*متى ٥: ٥٦*)، *أو لأنّه* يسمّي أيضًا مدينين أولئك الذين قد أخبروه عنهم أنّهم ماتوا تحت خراب البرج»، وأيضًا الذي خلط بيلاطوس دماءهم بذبائحهم.

وفي الواقع يقول أيظنُّ أنّهم مدينون، أي أكثر خطأة من سواهم، مضيفًا: «الحقّ أقول لكم إن لم تتوبوا تهلكون جميعكم بالطريقة عينها» (متى ٥: ٢٣-٢٤). إذن، ليست الوصيّة هنا أمرًا بإعفاء المدين من دينٍ عليه بل دعوةً بأن نغفر لمن أساءَ إلينا، لأنّ الوصيّة التي تدعو بالعفو عن دين ماليّ تعود إلى ما قيل سابقًا: «وكلّ من أراد أن يشكوك إلى القاضي ليأخذ قميصك فخلِّ له رداءك أيضًا» (متى ٥: ٤٠). وانطلاقًا ممّا تقدّم، فلا يجوز أن يُعفى كلّ مدين ممّا عليه، بل من لا يريد أن يفي تلقائيًّا أو إذا طولب وحسب. وفي الواقع إنّه ليرفض الدفع لسببين: إمّا ليس له ما يدفعه أو لأنّه بخيل ويطمع بمال الآخرين. وفي الحالتين فقر: هناك فقر إلى المال وهنا فقر في الإرادة. وفي هذه الحال إعفاء ذاك الفقير ممّا عليه من مال هو قيام بعمل مسيحيّ، انطلاقًا من تلك القاعدة الدقيقة، وهي أن نكون دومًا مستعدّين لخسارة ما لنا من دينٍ على الآخرين؛ ولكن إن استعملنا ما في الاعتدال من سبل، إضافة إلى اللطف استردادًا لما لنا، لا رغبةً في الربح، بل في سبيل إصلاح الإنسان الذي يعيش في خطر، إن لم يفِ ما عليه؛ وهو قادر على ذلك، فلسنا نخطأ، بل نؤدّي له خدمةً جلّى لأنّنا نمنع ذلك الإنسان من خسارة إيمانه من خلال سعيه إلى أن يأخذ ما ليس له حقٌّ فيه وتلك لعمري خسارة كبرى. من هنا يجب أن ندرك أنّ عبارة «اعف عنّا ديوننا» لا تعني المال بالتحديد بل كلّ إساءة ترتكب تجاهنا حتّى في مجال المال. إليك يسيءُ كلّ من يأبى أن يفي ما لك عليه ساعة يكون قادرًا على وفائه؛ وإن لم تعفُ عن إساءته إليك فلا تستطيع أن تقول:

«أعفُ عنّا كما نحن نعفو»؛ أمّا إذا عفوت فلأنّك تعرف بأنّ تلك الصلاة تفرض الصفح عن الإساءة حتّى في الشأن الماليّ.

٢٩- لا شكّ في أنّنا نستطيع أن نضيف حين نقول: «أعفُ عنّا ديوننا كما نحن نعفو عن ديوننا على الآخرين»؛ إنّنا مقتنعون بمخالفتنا تلك الوصيّة ساعة نرفض الصفح عمّن يسألناه، في وقت جئنا نسأل الصفح من أبٍ يفيض بالرحمة. أمّا الوصيّة التي تفرض علينا الصلاة لأجل أعدائنا فلا تنطبق على من يستغفروننا وما عادوا لنا أعداء. من المستحيل القول إنّنا نصلّي لمن لم نغفر لهم. إذن، يجب الاعتراف بأنّه من الضروريّ التغاضي عن الإهانات التي ارتكبت بحقّنا إن أردْنا من أبينا أن يغفر لنا جميع ما أسأنا به إليه. أمّا الانتقام فقد استفضنا في الكلام عليه آنفًا (١٩ و٢٠).

الفصل التاسع: في التجربة

٣٠- إليكم الطلب السادس: «ولا تدخلنا في تجربة». جاءَ في بعض النصوص «لا تجرّنا إلى التجربة»، إنّما المعنى ذاته لأنّ النّصّين منقولان عن كلمة يونانيّة eisenegkes وكثيرون يقولون في تلاوتهم للصلاة: «لا تسمح بأن ننجرَّ إلى التجربة»، شرحًا لمعنى التعبير Induisez لأنّ الله لا يدفع إلى تجربة بل يسمح بأن يقع فيها هذا الذي حبس عنه معونته لغايةٍ خفيّة جدًّا وقصاصًا له؛ وغالبًا فإنّ الله ولأسباب مكشوفة يتركه يقع في التجربة؛ إنّما شيءٌ هو السقوط في التجربة وآخر هو أن يجرَّب الإنسان. إن لم يجرّب الإنسان فلا يمكن امتحانه، لا لذاته بحسب قول الكتاب: «الذي لم يُمتحن، ماذا يعمل» (يشوع بن سيراخ ٣٤: ١١)، ولا للآخرين بحسب قول الرسول: «وإنّكم ما

احتقرتم ما اختبرتموه من علّةٍ في جسدي» (غلاطية ٤: ١٣-١٤)، لأنّه إن كان القدّيس بولس قد عرف أنّ الغلاطيّين قد ثبتوا فذلك لأنّ المحن التي ابتلى بها في جسده لم تطفئ فيهم جذوة المحبّة. أمّا الله الذي يعلم كلّ شيء قبل حدوثه فإنّه يعرفنا قبل أن نتجرّب.

٣١- أمّا في ما قيل: «إنّ الله يختبركم ليعرف إن كنتم تحبّونه» (تثنية الاشتراع ١٣: ٣) فيجب أن نشرح لفظة «ليعرف» بمعنى: ليجعلكم تعلمون. وعلى هذا النحو نقول: «يومًا سعيدًا» أي يومٌ يجعلنا سعداء كما نقول «بردًا كسولًا» أي بردٌ يحمل الناس على الكسل. وكم من تعابير أخرى من هذا النوع دخلتْ إمّا من طريق الاستعمال وإمّا دخلت في اللغة المحكيّة على ألسنة العلماء ثمّ دخلت في نصوص الكتب المقدّسة! وذاك ما لا يدركه الهراطقة، أعداء العهد القديم، عندما يزعمون أنّ عبارة «الربّ يمتحنكم ليعلم إن كنتم تحبّونه» صادرة عن جهل؛ كما لو أنّ الإنجيل لم يخبرنا عن الربّ نفسه بقوله: «وإنّما قال ذلك ليجرّبه، لعلمه بما سيصنع (يوحنا ٦: ٦)، فإذا كان الربّ يعلمُ ضمير من يجرّبه فإلامَ رمى بتجربته؟ بالتأكيد، لقد أراد أن يعرف المجرّبُ نفسه ويدين يأسَه، حين يرى الجموع تشبع من خبزٍ عجائبيّ، هو الذي كان يظنّ أن ليس لديها ما تأكله (يوحنا ٦: ٧-١٣).

٣٢- فليس يُطلب منّا هنا، إذن، عدمُ الخضوع لتجربة بل عدم السقوط فيها، تقريبًا كإنسان أُخضع لاختبار النار فيطلب، لا ألّا تمسَّه، بل فقط ألّا تأكله. والحال فإنّ آنية الخزّاف تختبر بالنار والإنسان الصالح بالمحن (يشوع بن سيراخ ٢٧: ٦). لقد امتحن يوسف بالزنى ولكنّه لم يسقط فيه (تكوين ٣٩: ٧-١٢)، وامتحنت سوسنّة ولكنّها لم تستدرج ولا سقطت فيه (تثنية الاشتراع ١٣: ١٩-

٢٤). وكثيرون آخرون من الجنسين وبخاصّة أيّوب. إنّ أولئك الهراطقة أعداء العهد القديم، في بحثهم عن طريقة للهزء من أمانة ذلك الصديق إلى الربّ إلهه، يلحّون بنوع خاصّ على النقطة التالية وهي أنّ الشيطان استأذن الربّ في امتحانه أيّوب (أيوب ١: ١١) ويسألون الجهّال وغير القادرين من الناس عن تلك المعلومات قائلين كيف يستطيع الشيطان أن يتكلّم مع الله!؟

ولم يروا ولا استطاعوا أن يروا لعمًى خلّفته فيهم روح الخصومة والمعتقدات الباطلة! وإذ لم يرَوْا أنّ الله ليس جسمًا يشغل مكانًا في المدى، بحيث يكون هنا وليس هناك؛ فيكون جزءٌ منه هنا وجزءٌ هناك؛ إنّما حاضرٌ في كلّ مكان بكامله، لا انقسام فيه ولا تجزئة. إن فهموا بالمعنى الماديّ قوله: «السماء عرشي والأرض موطئ قدميّ» (أشعيا ٦٦: ١)، وهو كلام يثبته الربّ قائلًا: «لا تحلفوا بالسماء لأنّها عرش الله ولا بالأرض لأنّها موطئ قدميه» (متى ٥: ٣٤-٣٥)، وهل يُعجب من أن يكون الشيطان على الأرض عند قدمي الله فيكلّمه؟ متى يستطيعون أن يفهموا أنّه ما من نفسٍ، أيًّا يكن شرّها وفجورها، لا يكلّمها الله بصوت الضمير، شرط أن تكون قادرة على الفهم؟ ومن ذا الذي كتب الشريعة الطبيعيّة في قلب الإنسان سوى الله؟ وعنها يقول الرسول: «فالوثنيّون الذين بلا شريعة، إذا عملوا بالفطرة ما تأمر به الشريعة صاروا شريعة لأنفسهم، مع أنّهم بلا شريعة؛ فيدلّون على أنّ ما تأمر به الشريعة من الأعمال مكتوبٌ في قلوبهم وتشهد لهم ضمائرهم وأفكارهم؛ فهي تارةً تشكو منهم وطورًا تدافع عنهم. وسيظهر ذلك كلّه، كما أبشّر به، يوم يدين الله سرائر الناس بيسوع المسيح» (رومة ٢: ١٤ و١٥ و١٦). إذن، حين تكون نفس عاقلة تفكّر وتحلّل، وإن كانت الشهوة قد أعمتها، فلا يجوز أن ننسب إليها ما هو حقّ في منطقها بل

نعزوه إلى نور الحقيقة الذي ينيرها، وإن بنسبة ضئيلة؛ وبقدر ما تستوعب؛ إذ ذاك فهل نعجب من أنّ نفس الشيطان الفاجرة التي أعمتها الشهوة قد تعلّمت من صوت الله، صوت الحقيقة بالذات، ما هو حقيقيّ في تفكيرها حول ذاك الرجل البارّ، ساعة أرادت أن تجرّبه؟ أمّا ما كان غلطًا في تفكيرها فيجب أن يُعزى إلى الشهوة عينها التي أعطتها لقب الشيطان، النمّام، وأخيرًا، يتكلّم الله عادةً بواسطة الخليقة الجسديّة والمنظورة إلى الأبرار والأشرار لكونه سيّد الأشياء كلّها ومدبّرها بنسبٍ عادلة كما أنّه قد اتّخذ من الملائكة خدّامًا ظهروا أمام أعين الناس، كما اتّخذ أنبياء حرصوا على أن يقولوا: إليكم ما يعلن عنه الربّ. فكيف لنا أن نعجب مرّةً بعد، إن قيل لنا إنّ الله كلّم الشيطان، لا بصوت الضمير، بل بواسطة خليقةٍ مناسبة لتلك الغاية؟

٣٣- ولا يتوهّمن أحدٌ أن يكون في ذلك العمل احترام من الله للشيطان أو مكافأة له استحقّها فتحدّث الله إليه. لقد كلّم الله جوهرًا ملائكيًّا وإن يكن عديم الإحساس، جشعًا كما يكلّم نفسًا بشريّة، جشعةً وعديمة الإحساس. على أخصامنا أن يقولوا لنا كيف تكلّم الله مع ذلك الغنيّ الذي أراد أن يوبّخه على بخله قائلًا له: «يا أحمق، الليلة، الليلة، تؤخذ منك نفسك، وهذا الذي جمعته، لمن يكون؟» (لوقا ١٢: ٢٠). من الأكيد أنّ الربّ قال ذلك في الإنجيل الذي يجب على الهراطقة أن يخضعوا له، شاؤوا أم أبوا؛ حتّى إن اغتاظوا لرؤية الشيطان يستأذن الله ليجرّب إنسانًا صالحًا فلن أجد صعوبة في شرح ما حدث إنّما أجد نفسي مضطرًّا إلى أن أسألهم لماذا قال الربّ نفسه في الإنجيل لتلاميذه: «ها إنّ الشيطان قد طلبكم ليغربلكم كالحنطة» ثمّ قال لبطرس: «ها إنّي صلّيت لئلّا ينهار إيمانك»؟ (لوقا ٢٢: ٣١-٣٢). وإن تفاهموا حول هذا وجدوا، بأنفسهم، الحلّ المطلوب؛ وإن لم

يصلوا إلى نتيجة فلا يتجرّأ أحدٌ منهم على أن يعيب في كتاب آخر ما يقبلونه بسهولة في الإنجيل.

٣٤- يجرّب الشيطان، إذن، لا بفعل قدرته الذاتيّة، بل بإذن من الله الذي يريد ذلك، إمّا معاقبةً للناس على خطاياهم، أو امتحانًا لهم، وتدريبًا على أعمال الرحمة. وإنّه لمن المهمّ أيضًا أن نميّز طبيعة التجربة: فالتي سقط فيها يوضاس فباع الربّ، ليست كتلك التي سقط فيها بطرس، فأنكر معلّمه عن خوف. ويبدو لي أنّ هنالك أيضًا تجارب بشريّة مثلًا، حين يفشل إنسان ذو مقاصد صالحة في مشروع ما، أو يغضب على أخٍ بقصد إصلاحه، متجاوزًا حدود الصبر المرسومة للمسيحيّين والتي يقول بشأنها الرسول: «لم تصبكم تجربة إلّا وهي على مقدار وسعكم البشريّ. إنّ الله صادق فلا يكلّفكم من التجارب غير ما في وسعكم؛ بل يؤتيكم مع التجربة وسيلةً للنجاة منها» (١قور ١٠ : ١٣). بهذا يجعلنا نرى، بما فيه الكفاية، أنّه لا يجوز لنا أن نطلب إعفاءَنا من التجربة، بل من السقوط فيها. والحال، فقد نتعرَّض للسقوط فيها إن كانت من طبيعتها غير قابلة للاحتمال. ولمّا كانت تلك التجارب خطرةً والسقوط فيها وخيم العاقبة وتصدر عن يسرٍ أو عسرٍ في الحياة فالذي لا تستهويه مفاتن اليسر لن يقع ضحيّة العسر.

٣٥- «بل نجّنا من الشرّ»

يقول الطلب السابع والأخير: «بل نجّنا من الشرّ» (متى ٦ : ١٣). على المؤمن أن يسأل في الصلاة، ليس النجاة من شرٍّ ليس فينا وحسب؛ وذاك هو موضوع الطلب السادس، بل النجاة من الشرّ الذي وقعنا فيه، حتّى إذا قمنا بذلك لن يبقى علينا أن نخشى أيّ تجربة؛ إنّما لا نقدر على أن نتأمّل في تحقيق ذلك الطلب، ما دمنا في هذه الحياة؛

في الوضع المميت الذي ألقتنا فيه الحيّة الخبيثة. مع ذلك، علينا أن ننتظر حصوله، يومًا ما؛ وذلك هو الرجاء الذي لا يُرى على حدّ قول الرسول: «إن جاء المنظور ليس برجاءٍ» (رومة ٨: ٢٤) على أنّه لا يجوز لخدّام الله أن ييأسوا من الحصول على الحكمة التي تُعطى حتّى في هذه الحياة والتي تقوم على أن نتجنّب كلّ ما نعرف بوعي وثبات، وبوحي من الله أنّه يجب أن نتجنّبه. وعلينا أيضًا أن نعانق، بكّلّ ما في المحبّة من حرارة، ما يجب أن نصبو إليه، استنادًا إلى ذلك الوحي عينه. وعلى هذا النحو، عندما ينزع الموت عن الإنسان ثقل الميتوتة هذا سوف يتمتّع في وقته، بلا قيد أو شرط، بالسعادة الكاملة التي بدأت في هذه الحياة والتي نتوق إلى الحصول عليها منذ هذا العالم بكلّ قوانا وأمانينا.

الفصل العاشر:
الطلبات الثلاث الأولى والطلبات الأربع الأخيرة

٣٦- إنّما تجب دراسة طلبات الأبانا السبع بدقّة وإمعان مع ما بينها من فوارق؛ لأنّه كما أنّ حياتنا الراهنة تنقضي في الزمن مع أنّنا نرجوها أبديّة؛ وبما أنّ الأمور الأبديّة هي أكرم وأشرف وإن كنّا لا نبلغها إلّا مرورًا بالدينونة، فإنّ الغاية من الطلبات الثلاث الأولى أبديّة وإن تكن بدايتها في هذه الحياة العابرة؛ لأنّ تقديس اسم الله قد بدأ مع مجيء الربّ المتواضع؛ ولأنّ مجيء ملكوته ثانيةً بالمجد سيكون عند انقضاء الأزمنة، وليس بعدها؛ وإنّ مشيئته سوف تتمّ على الأرض كما في السماء سواءٌ أقصدتم بالسماء والأرض الأبرار والأشرار، أم الروح والجسد، أم الكنيسة والمسيح، أو بكلّ ذلك معًا سوف يتمّ اكتمال

سعادتنا وتاليًا بانقضاء الدهور. والحال فإنّ تقديس اسم الله سوف يكون أبديًّا ولن يكون لملكه انقضاء. ولقد وُعدنا بحياةٍ أبديّة في حشا السعادة الكاملة وعليه، فإنّ تلك الطلبات الثلاث سوف تستمرّ كاملة ومجتمعة في الحياة التي وُعدنا بها.

٣٧- أمّا الطلبات الأربع الأخرى فيبدو لي أنّها تختصّ بالحياة الزمنيّة. فالطلب الأوّل هو: «أعطنا اليوم خبز يومنا» فحين نقول: «خبز يومنا»، سواءٌ أكان روحيًّا أم قوتًا للجسد، فالأمر يتعلّق بالوقت الذي يسمّيه الربّ: «اليوم؛ وذلك لا يعني أنّ القوت الروحيّ ليس أبديًّا بل أنّ ما نسمّيه، هنا، خبز يومنا، يُعطى للنفس إمّا بواسطة الكتب المقدّسة أو بالكلمة أو بعلامات حسيّة أخرى؛ إنّه كلّ ما يزول حين يعلّم الله الجميع فيشاركون (يوحنا ٦: ٤٥) لا بحركة من الجسد، بل بالفكر النقيّ، في نور الحقيقة الفائق الوصف، هذه الحقيقة المستقاة من ينبوعها. وقد يستعملون كلمة الخبز، من دون الشراب، لأنّ الخبز عندما يُكسر ويؤكل يتحوّل إلى طعام، كما هي حال الكتب التي تصفّح ويجري التأمّل فيها وتغذّي النفس. بيد أنّ الشراب المعدَّ سلفًا يسري في الجسد محتفظًا بطبيعته بحيث تكون الحقيقة ها هنا الخبز المسمّى يوميًّا. أما في الحياة الأخرى فلن يعود من مجالٍ إلّا لشرابٍ يُستقى من الحقيقة النقيّة والمنظورة، من دون نقاش مزعج وجعجعة كلام ومن دون أيّ حاجة إلى كسرٍ ومضغ. ها هنا تُغفر لنا خطايانا وها هنا نغفر لمن خطئ إلينا؛ ذاك هو موضوع السؤال الثاني من الأربعة؛ لأنّه لن يعود من مجال في العالم الآخر للاستغفار، حيث لا مجال للإساءات. إنّ التجارب «تقلق هذه الحياة الزائلة»؛ إنّما سوف يُقضى عليها حين يتمّ القول التالي: «إنّك تسترهم في ستر وجهك» (مزمور ٣٠: ٢١). أمّا الشرّ الذي نصبو إلى أن ننجو منه. فالنجاة منه تعود إلى الحياة التي

جعلتها العدالة الإلهيّة زائلةً بسبب خطيئتنا؛ والتي ننجو منها بفضل رحمتها.

الفصل الحادي عشر: مواهب الروح القدس السبع - طلبات الأبانا السبع - الطوبيّات السبع

٣٨- إنّ العدد سبعة الذي نجده في هذه الطلبات يبدو لي متطابقًا أيضًا مع العدد ٧ الذي ابتدأت به عظة الجبل. والحال إن كانت مخافة الله هي التي تجعل المساكين بالروح سعداء لأنّ لهم ملكوت السماوات فلنسأل أن يكون اسم الله مقدّسًا بين الناس بوساطة المخافة النقيّة التي تدوم من جيل إلى جيل: «خشية الربّ طاهرة ثابتة إلى الأبد وأحكام الربّ نقيّة تنير العيون» (مزمور ١٨: ١٠). إن كانت التقوى هي التي تجعل ذوي القلوب المتواضعة سعداء لأنّهم يرثون الأرض، فعلينا أن نسأل لكي يتحقّق ملكوت الله إمّا فينا فنصبح ودعاء مستسلمين لما يقول، وإمّا على الأرض من السماء من خلال مجيء الربّ الممجّد فنسعد ونبتهج بقوله: «تعالَوا يا مباركي أبي رثوا الملك المعدّ لكم منذ إنشاء العالم» (متى ٢٥: ٣٤). إنّ النبيّ يقول: «بالربّ تفتخر نفسي، يسمع البائسون فيفرحون» (مزمور ٣٣: ٣). إن كانت المعرفة هي التي تجعل الباكين سعداء لأنّهم يعزّون فلنطلب أن تكون مشيئة الله مرعيّةً على الأرض كما هي في السماء؛ لأنّه، منذ أن يصبح الجسم الترابيّ خاضعًا للروح، كما في السماء، في سلام تامّ كليًّا؛ فلن يعود لنا من مجال للبكاء لأنّ الداعي الوحيد إلى البكاء ها هنا، هو هذا العراك الباطنيّ الذي يدفعنا إلى أن نقول: «إنّي أرى ناموسًا آخر في أعضائي يحارب ناموسًا روحيًّا ويأسرني تحت ناموس الخطيئة الذي في

أعضائي». ثمّ نروح نعبّر عن حزننا بهذه الصرخة المؤثّرة بقولنا: «الويل لي أنا الإنسان الشقيّ من ينقذني من جسد الموت هذا؟» (رومة ٧: ٢٣-٢٤). إن كانت القوّة هي التي تجعل من بهم جوع وعطش إلى البرّ سعداء، لأنّهم يشبعون، فلنصلّ لكي يعطونا اليوم خبزنا اليوميّ، قوّةً لنا ودعمًا، فنتمكّن من بلوغ الاكتفاء التامّ. إن كان النصح هو الذي يجعل الرحماء سعداء لأنّهم سيرحمون فلنترك ما لنا على الناس ولنصلِّ لكي يترك الناس ما لهم علينا. إن كان الإدراك هو الذي يجعل أنقياء القلوب سعداء لأنّهم سوف يشاهدون الله فلنصلّ لئلّا نقع في التجارب خوفًا من أن ينقاد قلبنا إلى الطمع بالخيرات الزمنيّة والأرضيّة، بدلًا من أن يطلب ما ليس بالخير السليم ونوجّه إليه كلّ نشاطنا. والحال ما دامت التجارب تصدر عمّا يبدو للناس صعبًا وكارثيًّا ولا يمكنها أن تؤثّر فينا إلّا بمقدار ما يظنّها الإنسان حسنة ومفيدة. وإن كانت الحكمة هي التي تجعل محبّي السلام سعداء، لأنّهم سيدعَون أبناء الله، فلنصلّ لننجو من الشرّ لأنّ الخلاص من الشرّ يجعلنا أحرارًا، أبناء الله فندعوه بروح التّبنيّ: «أبّا، أيّها الآب».

٣٩- وعليه، إنّه لمهمٌّ جدًّا الانتباه إلى أنّه بين الطلبات السبع التي أوصانا الربّ فيها بالصلاة، واحدة تتعلّق بمغفرة الخطايا وبها يريدنا أن نكون رحماء؛ إنّها الوسيلة الوحيدة للخلاص ممّا فينا من شرور. إنّ الطلبات الأخرى لا تحتوي كالتي ذكرناها على نوع من العهد مع الله حيث نقول له: «إغفر لنا ذنوبنا كما نحن نغفر»، وإن لم نرعَ الشرط فلا ثمرة لصلاتنا. والبرهان على ذلك هو أنّ المخلّص نفسه يقول لنا: «لأنّكم إن غفرتم للناس زلّاتهم فأبوكم السماويّ يغفر لكم أيضًا زلّاتكم. أمّا إن رفضتم الغفران للناس فأبوكم لن يغفر لكم خطاياكم».

الفصل الثاني عشر: في الصوم

٤٠- ثمّ تلي وصيّة الصوم التي تتعلّق أيضًا بنقاوة القلب عينها التي نتكلّم الآن عليها لأنّه يجب هنا الابتعاد عن كلّ مفاخرة وطمع بالثناء البشريّ الذي يزهي القلب وينزع عنه النقاء والصفاء اللذين لا بدَّ منهما لإدراك الله: «إذا صمتم فلا تعبسوا كالمرائين الذين يرهقون وجوههم ليظهروا للناس صيامهم. الحقّ أقول لكم قد قبلوا أجرهم. أمّا أنت فإذا صمت فادهن رأسك واغسل وجهك لئلّا يظهر للناس صيامك بل لأبيك الذي يرى الخفايا فيجازيك علانية» (متى ٦: ١٦-١٨). ومن الواضح أنّ تلك التوصيات تتوق إلى توجيه انتباهنا إلى الأفراح الداخليّة وتمنعنا من التكيُّف بأخلاق هذا العالم، سعيًا إلى مكافأة في الخارج فنخسر السعادة التي وعدنا بها، وهي سعادة تكون صلبةً وراسخة بقدر ما هي حميمة والتي اختارنا الله بموجبها لأن نكون مشابهين لصورة ابنه.

٤١- يجب الاعتراف، فيما يختصّ بهذه النقطة، بأنّ حبّ الظهور لا يتلبّس بالمظاهر الخارجيّة الفخمة وحسب، بل في ثيابٍ رثّة لا تخلو من جوّ يدعو إلى الحزن وفيها يكمن خطر التظاهر بمخافة الله للمزيد من الغشّ والخداع. إذن، إنّ من يُعنى بجسده عناية فائقة ويتّخذ البذخ في الملبس والأمور الماديّة شعارًا له في الحياة يسهل ضمُّه إلى التوّاقين إلى أمجاد هذا العالم؛ ولا مجال لأن ينخدع أحدٌ بمظاهر قداسته. أمّا الذي يجاهر بمسيحيّته ويجتذب إليه أنظار الناس بما هو عليه من إهمالٍ لخارجه في ثياب رثّة وقذرة، بإرادته، ومن دون أن يكون مرغمًا على ذلك، فإنّه يفسح في المجال من خلال سلوكه للناظر إليه أن يعرف إن كان يزدري حقًّا كماليّات الحياة أم يطمح من خلال مظهره المقشّف إلى

ما لا يزال خفيًّا على الناس لأنّ الربّ يُوصينا بأن نحذر الذئاب المتلبّسة بما للنعاج قائلًا: «من ثمارهم تعرفونهم» (متى ٧: ١٦) وعليه، فعندما تنكشف أمورهم بعدما يمتحنون فيعرَّون ممّا أخذوه أو تاقوا إليه من خلال مظاهرهم الخبيثة، إذ ذاك فمن الضروريّ النظر في ما إذا كان ثمّة ذئبٌ في ثوب نعجة أو نعجة في ثوبها؛ لأنّه لا يجوز لمسيحيّ أن يخدع أنظار الناس بزخرفات لا طائل تحتها بحجّة أنّ الخبثاء غالبًا ما يظهرون بمظاهر وضيعة، مكتفين بالضروريّ ليغشّوا القليلي الإدراك؛ وليس على النعجة أن تتخلّى عن جلدها إن كانت الذئاب تتستّر فيه أحيانًا.

٤٢- وغالبًا ما يتساءَل الإنسان عن معنى الكلمات التالية: «أمّا أنتم، متى صمتم، فادهنوا رؤوسكم واغسلوا وجوهكم كي لا تظهروا للناس أنّكم صائمون». قد يكون من الخطأ أن نُوصي بأن ندهن رأسنا حتّى صمنا مع أنّنا اعتدنا أن نغسل وجهنا كلّ يوم. إن توافق الكلّ على أنّ الوصيّة ليست في محلّها إذ ذاك وجب علينا أن نطبّقها على الإنسان الباطنيّ فيدهن رأسه ويغسل وجهه لأنّ دهن الرأس فرح وغسل الوجه نظافة؛ ومن ثمّ يدهن رأسه من كان فرحًا بروحه وعقله. وانطلاقًا ممّا تقدّم ذكره يمكننا أن نسمّي رأسًا ملكة النفس الأساسيّة التي تدبّر الإنسان بكليّته وتتسلّط بشكل ظاهريّ عليه. وذاك هو ما يفعله ذاك الذي لا يسعى البتّة إلى المجد الخارجيّ ولا يتعاطف بجسده مع مديح الناس إيّاه. فالجسد، إذن، يكون تابعًا ولا يمكن أن يكون رأسًا للطبيعة البشريّة بأكملها». «لا شكّ في أنّه ما من إنسانٍ يبغض جسده» (أفسس ٥: ٢٩)، ولكن «الرجل هو رأس المرأة ورأس الرجل المسيح» (١قور ١١: ٣). وعلى هذا النحو فكلّ من أراد أن يدهن رأسه عملًا بالوصيّة فيلفرح، داخليًّا، بصومه؛ لأنّه ينأى بذلك عن

ملذّات الجسد ليخضع للمسيح. وعلى هذا الشكل فإنّه يغسل وجهه، أي يطهّر قلبه الذي به يعاين الله، متخلّيًا عن القناع الذي غطّاه به الضعف الناجم عن رجاسة الخطيئة؛ حينذاك يصير ثابتًا وراسخًا وقد أصبح نقيًّا وبسيطًا. لقد قال النبيّ: «إغتسلوا وتطهّروا وأزيلوا شرّ أعمالكم من أمام عينيّ (أشعيا ١: ١٦). علينا، إذن، أن نطهّر وجوهنا من النجاسة التي تسيء إلى وجه الله «لأنّنا إذ نتأمّل مجد الربّ، بوجهٍ مكشوف، نتحوّل إلى الصورة عينها» (٢ قور ٣: ١٨).

٤٣- غالبًا ما يجرح الاهتمام بضرورات الحياة عيننا الباطنيّة ويدنّسها؛ وغالبًا ما يجعلُ لنا ازدواجيّة في العاطفة بحيث إنّ ما نتظاهر قيامًا به، لخير الناس، لا يعود صادرًا بدافع ممّا يفرضه الله علينا، أي بروح المحبّة، بل بغية الحصول منهم على ما يلبّي حاجات الحياة الراهنة؛ على أنّ ما يجب علينا أن نصبو إليه من خلال الخير الذي نعمله لهم هو خلاصهم الأبديّ من دون أيّ نفع زمنيّ خاصّ بنا. سأل الله أن ينعطف بقلبنا إلى حفظ وصاياه والابتعاد عن الطمع (عن الاختلاس) (مزمور ١١٨: ٣٦).

«وإنّما غاية الوصيّة المحبّة الصادرة عن قلب نقيّ وضمير صالح وإيمان لا رياء فيه» (١ تيمو ١: ٦)، على أنّ يؤدّي خدمةً إلى أخٍ قضاءً لمصالح له شخصيّة، لا يعمل بالرحمة، بكلّ تأكيد، ولا يعمل لخير من يجب عليه أن يحبّه كنفسه؛ بل لخيره الشخصيّ يعمل؛ وبالأحرى فإنّه لا يعمل حتّى لخيره لأنّه، بعمله ذلك، يُغلق قلبه (أو يبطّنه) فلا يعود يرى الله، علمًا بأنّ رؤية الله هي السعادة الوحيدة الأكيدة والباقية.

الفصل الثالث عشر

٤٤- إذن، إنّه لعلى حقٍّ هذا الذي يعمل بإلحاح على تنقية قلوبنا فيتابع إعطاء أوامره قائلًا: «لا تكنزوا لكم على الأرض كنوزًا حيث يفسد السوس والآكلة وينقب السارقون ويسرقون؛ لكن اكنزوا لكم كنوزًا في السماء، حيث لا يفسد سوس ولا آكلة ولا ينقب السارقون ولا يسرقون؛ لأنّه حيث يكون كنزك هناك يكون قلبك» (متى ٦: ١٩-٢١). إن كان القلب على الأرض، أي إن كنّا نبغي من خلال عملنا امتلاك خيرات أرضيّة، فالقلب لن يكون نقيًّا لأنّه ممرّغ في الوحل. أمّا إن كان في السماء فهو نقيّ لأنّ كلّ ما في السماء نقيّ. وكلّ ما اختلط بما هو أدنى منه طبيعةً وإن لم يكن نجسًا في الأصل، يصبح نجسًا. هكذا يتلوّث الذهب الذي يختلط بالفضّة الخالصة؛ وهكذا هي نفسنا فإنّها، باشتهائها ما هو أرضيّ، تتلوّث حتّى وإن لم تكن الطبيعة نجسةً من أصلها وفي المرتبة التي تشغلها. لسنا نعني بالسماء هنا السماء المادّيّة لأنّ الأرض تعني هنا كلّ ما هو جسد. أي أنّ كلّ من أراد أن يكدّس لنفسه كنوزًا في السماء، عليه أن ينبذ العالم بأسره. وعلينا أن نضع كنزنا وقلبنا في السماء التي قيل فيها: «سماء السماوات للربّ» (مزمور ١١٣: ١٦)، أي في الفلك الروحيّ وليس في الفلك الذي يزول بل في ذلك الذي يدوم إلى الأبد. «السماء والأرض تزولان» (متى ٢٤: ٢٥).

٤٥- يرينا الربّ أنّ تلك الوصايا بأكملها تتعلّق بطهارة القلب حين يقول: «سراج الجسد العين فإن كانت عينك بسيطة فجسدك كلّه يكون نيّرًا؛ وإن كانت عينك شرّيرة فجسدك كلّه يكون مظلمًا. وإذا كان النور الذي فيك ظلامًا فالظلام كيف يكون؟» (متى ٦: ٢٢-٢٣).

إنّ ذاك المقطع يجب أن يُفهم على النحو التالي: لتكن على يقين مِنْ أنّ أعمالنا تكون طاهرة ومقبولة أمام عيني الربّ عندما تتمُّ بقلب سليم، أي بنيّة فائقة الطبيعة، غايتها المحبّة؛ لأنّ المحبّة كمال الناموس» (رومة ١٣: ١٠). إنّ العين هنا، إذن، هي النيّة التي توجّه أعمالنا حتّى إذا كانت طاهرة ومستقيمة هدفتْ إلى ما يجب أن تكون؛ وما نعمله سيكون بالضرورة خيرًا. وكلّ تلك الأعمال هي ما يدعوه الربّ الجسد، كما يدعو الرسول أعضاءَ لنا بعض ما يشجبه من أفعال ويأمر بموتها قائلًا: «أميتوا أعضاءَكم التي على الأرض وهي الزنى والنجاسة والبخل» (كولوسي ٣: ٥) وكلّ ما شابهها.

٤٦- إذن، على الإنسان أن ينظر إلى ما يدفع إلى العمل وليس إلى العمل؛ وإنّه النور الذي فينا هو الذي يبيّن لنا أنّنا نعمل بنيّة صالحة «لا كلّ ما يُعلن فهو نور» (أفسس ٥: ١٣). ولكن بما أنّ أفعالنا تتّصل بالمجتمع البشريّ فنتائجها غير أكيدة؛ حتّى إنّ الربّ يدعوها ظلامًا. وفي الواقع، عندما أتصدّق إلى فقير يستعطيني فإنّي لست أعرف ما سوف يعمل بما أعطيه وأيّ نفع يناله منه؛ قد يحدث أن يفرّط به أو أن يسيء به إلى نفسه؛ وذاك ما لا أريده ولا خطر ببالي ساعة تصدّقتُ به عليه؛ حتّى إذا كنت قد قمت بذلك العمل، بنيّة سليمة ووعي تامّ، وذاك هو النور، فعملي يكون نيّرًا أيًا تكن النتيجة. أمّا الضياع وجهل النتيجة فتلك هي الظلمات. وإن كنت قد تصرّفت عن سوء نيّة فالنور ذاته يصبح ظلامًا؛ بيد أنّ النور قائم وكلّ إنسان يعرف الروحيّة التي تصرَّف بموجبها ولو أضمر السوء. ويصبح النور ظلامًا لأنّ النيّة ليست بسيطة، غير موجّهة إلى العلى بل إلى الأسفل فتخلق نوعًا من الظلمة الناتج من نفاقٍ في القلب. «إذا كان النور الذي فيك ظلامًا فالظلام كيف يكون؟» (متى ٦: ٢٣). أي، إن كانت نيّتك التي تدفعك إلى العمل فاسدة

ومصابة بالعمى من جرّاء ما تشتهيه من أمور الأرض الفانية، فكم أحرى بالأعمال ذات النتائج غير الأكيدة أن تكون فاسدةً ومظلمة؟ وإذا كنت ما تعمله بنيّة فاسدة قد استفاد منه آخر فلن يُحسَب لك أجر على الخير الذي يُجنى منه بل تُحسب عليك النيّة التي دفعتك إلى القيام به.

الفصل الرابع عشر: «لا يستطيع الإنسان أن يعبد ربَّين»

٤٧- أمّا بشأن الكلمات التالية: «لا يستطيع الإنسان أن يعبد ربّين» فيجب الرجوع بها إلى النيّة؛ فإنّ المخلّص نفسه يشرحها بقوله: «لأنّه إمّا أن يبغض الواحد ويحبّ الآخر أو أن يتعلّق الواحد ويحتقر الآخر». وإنّها لكلمات يجب التأمّل فيها بدقّة؛ إنّ الربّ نفسه يشير إلى هذين السيّدَين قائلًا: «أنت لا تستطيع أن تعبد الله والمال» (متى ٦: ٢٤). فالعبرانيّون يسمّون الثروات، على حدّ ما قيل، «ممونٌ» وهي لفظة تعني الكسب باللغة اليونانيّة وخدمة المال تعني التعبُّد للفاسد المتربّع على عرش الأشياء الأرضيّة والذي يسمّيه الربّ «أمير هذا الدهر» (يوحنا ١٢: ٣١؛ ١٤: ٣٠). إذن، فالإنسان إمّا أن يحبّه أي الله ويبغض الآخر وإمّا أن يلزم الواحد ويحتقر الآخر. فكلّ من كان عبدًا للمال فإنّه يتعلّق بسيّد قاسٍ وظالم بحيث يجعله الجشع خاضعًا للشيطان من دون أن يحبَّه. ومن ذا الذي يحبّ الشيطان؟ مع ذلك فإنّه يحتمله كما هي حال إنسان في بيت كبير يتحمّل مرارة العبوديّة بسبب ارتباطه بخادمة أجنبيّة وهو لا يحبّ سيّد تلك الخادمة.

٤٨- «أو يحتقر الآخر» والربّ لم يقل: «يبغض» إذ لا أحد يقوى على أن يبغض؛ إنّما يحتقر أو يزدري؛ أي لا يخشاه كما لو كان واثقًا من رحمته؛ ويسعى الروح القدس إلى أن يحرّرنا من ذلك الإهمال

وتلك الطمأنينة المشؤومة حين يقول بلسان الرسول: «يا بنيَّ، لا تزدْ خطيئة على خطيئة ولا تقل رحمة الله عظيمة. وأيضًا ألا تعرف أنّ صبر الله يدعوك إلى التوبة؟» (يشوع بن سيراخ ٥: ٥٠٦). ومن ذا الذي تجده رحومًا كالذي يغفر للتائبين كلّ خطاياهم ويجعل فرع الزيتونة البرّيّ مثمرًا؟ ومن ذا الذي يشبه بقساوته ذاك الذي لم يوفّر الفروع الطبيعيّة بل كسرها لعدم أمانتها؟ (رومة ١١: ١٧-٢٠). إذن، فمن أراد أن يحبّ الله ويتحاشى أن يهينه، فلا يتصوّرنّ أنّه يستطيع أن يحبّ ربّين. إنّما عليه أن ينقّي نيّته ويصون قلبه من كلّ رياء؛ إذ ذاك يحبّ الله في صلاحه ويلتمسه بقلبٍ سليم (حكمة ١: ١).

الفصل الخامس عشر

٤٩- ويقول: «لهذا أقول لكم لا تهتمّوا لأنفسكم بما تأكلون ولا لأجسادكم بما تلبسون» (متى ٦: ٢٥)، خوفًا من أن يبطّن القلب بالرياء في سعيه إلى الضروريّ من دون أن يطمع بما هو زائد فتتحوّل نيّاتنا إلى مصالحنا الشخصيّة حين نتظاهر بعمل الرحمة تجاه القريب، خوفًا من أن نضع نصب أعيننا مصالحنا الذاتيّة، مقابل رغبتنا في خدمة الآخر؛ ثمّ ندّعي البراءة لأنّنا لا نسعى إلى النافل بل إلى الضروريّ الصرف نسعى. يريد الربّ منّا أن نذكر أنّه خلقنا من نفس وجسد. لقد أعطانا أكثر بكثير من القوت والكسوة ولم يُرِدْ أن يغلّف الهمُّ قلبَنا بسبب تلك الحاجات وقال: «أليست النفس أهمّ من الطعام؟»، لكي يجعلنا نفهم أنّ الذي وهبنا الحياة لأسهل عليه بكثير أن يهبنا القوت «والجسد أهمّ من اللباس»، لكي نفهم أنّ الذي وهبنا جسدنا لأسهل عليه بكثير أن يهبنا ما نلبسه.

٥٠- ونتساءَل هنا على علاقة القوت بالنفس: فالقوت مادّة والنفس روح لكنّ النفس هذه تعني الحياة والقوت الماديّ هو الذي يحيي فنقول بهذا المعنى: «من أحبّ نفسه فقدها» (يوحنا ١٢: ٢٥)، فإن لم تكن النفس هي هذه الحياة الحاضرة التي ينبغي أن نفقدها لننال ملكوت الله على مثال الشهداء، لوقعنا في تناقض مع الكلام الآخر: «وماذا ينفع الإنسان لو ربح العالم كلّه وخسر نفسه»؟ (متى ١٦: ٢٦).

٥١- وقال: «أنظروا طيور السماء فهي لا تبذر ولا تحصد ولا تخزن في الأهراء، وأبوكم السماويّ يقوتها، أفلستم أفضل منها؟» (متى ٦: ٢٦). أي، أنتم أعظم منها شأنًا. فالحيوان الذي وُهبَ عقلًا كالإنسان، جُعِلَ في نظام الطبيعة أسمى من الحيوان الذي لا عقل له؛ كما هي حال الطيور. وقال: «من منكم يسعه، مهما اهتمَّ، أن يزيد على قامته ذراعًا واحدة؟» (متى ٦: ٢٧-٢٨). أي، إنّ الذي بقدرته ومشيئته قد أنمى جسدكم إلى ما هي عليه قامته، يقدرُ أيضًا، برعايته، وعنايته، على أن يهبه اللباس؛ كما وأنّكم تدركون أنّ قامتكم ليست عمل أيديكم، انطلاقًا من ذلك، فلن تقدروا، مهما انشغلتم واجتهدتم، على أن تزيدوا عليها ذراعًا واحدة؛ دعوا إذن الهمَّ بكساء جسدكم على من وهبه القامة.

٥٢- ووجب إعطاء مثل بشأن اللباس كما أُعطي مثلٌ آخر بشأن القوت؛ وعلى هذا النحو أضاف الربّ قائلًا: «ولم تهتمّون باللباس؟ إعتبروا بزنابق الحقل كيف تنمو. إنّها لا تتعب ولا تغزل. وأنا أقول لكم إنّ سليمان في كلّ مجده لم يلبس كواحدةٍ منها. فإذا كان عشب الحقل الذي يوجد اليوم، وفي غدٍ يُطرح في التنّور يلبسه الله هكذا، أفلا يلبسكم أنتم، بالأحرى، يا قليلي الإيمان؟» (متى ٦: ٢٨-٣٠). إنّما لسنا

لنناقش هذه الأمثال كرموز أو لنبحث عمّا يعنيه طير السماء وزنبق الحقل؛ فالمطروح هنا أشياء من طبيعة دنيا إدراكًا لما هو أسمى؛ وهي ما يشير إليه في موضع آخر مثلُ القاضي الذي لم يكن يخاف الله ولا يحترم الناس؛ ومع ذلك فقد انصاع إلى سماع شكوى الأرملة المتكرّرة، لا بدافع من التقوى أو الإنسانيّة بل تخلّصًا من إزعاجها (لوقا ١٨ : ٢-٥). إنّ قاضي الظلم ذاك ما كان يمثّل الله بأيّ شكل من الأشكال، ولو رمزيًّا، إنّما أراد الربّ أن يفهمنا، هو الصالح والعادل، كم يهتمّ بالذين يسألونه ما هم بحاجة إليه؛ إنّ الإنسان الظالم لا يسعه أن يردَّ الذين يرهقونه بطلباتهم، إن لم يكن إلّا تخلُّصًا من مضايقتهم إيّاه.

الفصل السادس عشر:
لا تتّخذوا البشارة سبيلًا إلى العيش؛ بل عيشوا في سبيل البشارة

٥٣- «لا تهتمّوا إذن قائلين: ماذا نأكل وماذا نشرب أو ماذا نلبس؟ فهذا كلّه يسعى إليه الوثنيّون؛ وأبوكم السماويّ عارف بأنّكم تحتاجون إلى هذا كلّه. فاطلبوا أوّلا ملكوت الله وبرّه تُزادوا هذا كلّه» (متى ٦ : ٣١-٣٣). إنّ الربّ يبيّن لنا بوضوح كامل أنّه لا ينبغي لنا أن نسعى إلى تلك الخيور، ولو كنّا بحاجة إليها فنجعلها غايةً لأعمالنا الصالحة وإن تكن ضروريّة. ويبيّن لنا أيضًا الفرق بين الخير الذي يجب علينا أن نسعى إليه، والضروريّ الذي يجب أن نقبله، بقوله: «أطلبوا أوّلًا ملكوت الله وبرّه والباقي يُزاد لكم»؛ ذاك هو خيرنا الذي يجب أن نسعى إليه ونتّخذه غايةً لنا قصوى وهدفًا لكلّ ما نعمل. ولكن، لمّا كنّا نجاهد في هذه الحياة وصولًا إلى ذاك الملكوت، ولمّا كانت تلك الأمور ضروريّة لنا للحياة، يضيف الربّ قائلًا: «وذلك كلّه تزادونه؛

إنّما اطلبوا أوّلًا ملكوت الله وبرّه» وإذ يقول «أوّلًا» يشير إلى أنّ الباقي يأتي في المرتبة الثانية، لا من حيث الزمن، بل من حيث الأهمّيّة: نطلب الأوّل كخيرٍ لنا شخصيّ ونطلب الآخر كضرورة بحاجةٍ إليه في سبيل ذاك الخير.

٥٤- وهكذا، ليس علينا أن نبشّر لنأكل، بل علينا أن نأكل لكي نبشّر؛ لأنّنا إن بشّرنا سعيًا إلى القوت نجعل الطعام أعلى من الإنجيل؛ إذ ذاك يكون الطعام خيرنا والبشارة حاجتنا وذاك هو ما يحرّمه الرسول بقوله إنّ من حقّه أن يستعمل ما سمح به الربّ للذين يبشّرون وهو أن يعيشوا من البشارة أي بأن يتّخذوا منها ما يحتاجون إليه قيامًا لحياتهم، من دون التفريط في استعمال ذاك الحقّ إذ كان أناس يبيعون البشارة ويشترونها؛ ومنعًا لهذا التجاوز كان الرسول يتدبّر أمر معيشته بيديه (أعمال ٢٠: ٣٤)، فيقول عنهم في موضع آخر: «ولا أزال أفعل ما أنا فاعلٌ لأدحض كلَّ حجّةٍ يأتي بها أولئك الذين يلتمسون حجّةً ليكونوا على مثالنا فيما يفاخرون به» (٢قور ١١: ١٢)، على أنّه لو عاش من البشارة كالرسل الحقيقيّين بحسب ما أجاز الربّ فما كان الطعام غايته من التبشير بل وسيلةً للتبشير؛ أي أنّه ما كان يبشّر كسبًا لطعامه ولسائر حاجات حياته ولوضع ذلك كلّه في خدمة البشارة، عن محبّة وليس عن حاجة يرفضها بقوله: «ألا تعلمون أنّ خدّام الهيكل من الهيكل يأكلون والذين يلازمون المذبح هم شركاء في المذبح؟ هكذا أوصى الله أيضًا بأنّ الذين يبشّرون بالإنجيل، من الإنجيل يعيشون. أمّا أنا فلم أفِدْ من أيّ حقّ من تلك الحقوق...» (١قور ٩: ١٣-١٥). إنطلاقًا ممّا تقدّم ذكره يبيّن أنّ ذلك إذنٌ وليس أمرًا، ثم يتابع قائلًا: «فلم أكتب هذا لأحظى بشيءٍ منها لأنّي أفضّل الموت على أن يحرمني أحدٌ هذه المفخرة» (١قور ٩: ١٥). إنّه يقول ذلك لأنّه كان قد قرّر أن يؤمّن

لنفسه معيشته بسبب من كانوا يسعون إلى الإفادة من تلك المناسبة: «فإذا بشّرتُ فليس في ذلك مفخرة لأنّها واجب لا بدّ منه، أيْ إن بشّرت لكي يعاملوني على ذاك النحو، أي إن بشّرت رغبةً في تلك الأمور أضع الهدف من البشارة في الطعام والشراب والملبس. ولكن، لِمَ لا يعود الفخر له؟ إنّه يقول: «إنّها لضرورة» أي أنّه يجب عليّ أن أبشّر إذ ليس لي ما يعيقني، ولكي أستفيد زمنيًّا من التبشير بالحقائق الأزليّة؛ حينذاك فلن أبشّر برضاي تلقائيًّا بالإنجيل بل عن حاجة «والويل لي إن لم أبشّر» (١قور ٩: ١٦)؛ ولكن كيف يجب عليه أن يبشّر؟ إنّه يبشّر سعيًا إلى مكافأة له في الإنجيل وفي ملكوت الله: إذ ذاك لن يكون التبشير عن حاجة بل بإرادة صالحة يستطيع أن يبشّر «لأنّي إن عملتُ ذلك بطيبة خاطر كان لي حقّ في الأجرة. أمّا إذا قمتُ بذلك فإنّي أقوم بما أسند إليّ، أي إذا بشّرت لأنّي مرغمٌ حصولًا على حاجتي للحياة فآخرون يفيدون بتعلّقهم بالإنجيل الذي أكرز به وأنا لن أفيد منه شيئًا لأنّي لا أحبّ الإنجيل كإنجيل بل الفوائد الزمنيّة التي أراها شخصيًّا مساوية له». وإنّ عدم التبشير بالإنجيل كابنٍ يعتبر جريمةً بل كعبدٍ يعطي ما أُسند إليه القيام به فيوزّعه كما يوزّع خيرًا غريبًا عنه لا يفيد منه إلّا ما يكون قد حصل عليه من أطعمةٍ لا تمتّ بصلة مع ملكوت الله لأنّها خارجة عنه كليًّا، لا دخل لها فيه ومعدَّة لإطالة مدّة عبوديّتنا البائسة. وليس الرسول هو من لا يعطي نفسه في موضعٍ آخر اسم موزّع الخيرات. والحال أن خادمًا ما رُقّي إلى مرتبة الابن يستطيع أن يوزّع بكلّ دقّة على أقرانه ما أخذه بصفته شريكًا في الوراثة، إنّما وهو يقول: «إنّي أقوم به آسفًا؛ وأوزّع ما استودعته فقط». إنّ الرسول يسمّي ذلك الصنف من الموزعين الذي يوزّع خير الآخرين أنّه يوزّع من دون أن يفيد منه هو ذاته شيئًا.

٥٥- وعليه فكلّ ما تطلبه حصولًا على شيءٍ آخر يبقى، من دون هذا الأخير قيمة؛ ومن ثمّ فالأفضليّة تعطى لما تتوق إليه وليس للوسيلة التي تتّخذها حصولًا إلى الهدف المنشود. إذن، إن سعينا إلى البشارة وإلى نشر ملكوت الله حبًّا بالطعام فإنّنا نعطيه الأفضليّة على الإنجيل والبشارة. أمّا إذا لم ينقصنا الطعام فسندع جانبًا ملكوت الله. وفي ذلك الموقف المتّخذ فإنّنا نطلب قبل كلّ شيء الطعام ثمّ ملكوت الله فنعطي الطعام الأولويّة على البشارة. أمّا إن كنّا لا نطلب طعامنا إلّا رغبة في الحصول على ملكوت الله إذ ذاك نتمّم الوصيّة القائلة: «أطلبوا أوّلًا ملكوت الله وبرّه والباقي يُزاد لكم».

الفصل السابع عشر: أطلبوا أوّلًا ملكوت الله وبرّه

٥٦- والحال عندما نطلب أوّلًا ملكوت الله وبرّه أي عندما نقدّمه على كلّ شيء سواه ولن نسعى من خلال كلّ الباقي إلّا كوسيلةٍ للحصول عليهما، حينذاك لا نخشى من أن ينقصنا ما هو ضروريّ لنا في هذه الحياة، وصولًا إلى ملكوت الله، لأنّ الربّ سبق أن قال: «أبوكم عالمٌ بما تحتاجون إليه» وذلك بعد أن قال أيضًا: «أطلبوا أوّلًا ملكوت الله وبرّه». ولم يضف: ثم اسعوا إلى تلك الأشياء وإن ضروريّة. بل قال: «والباقي تزادونه» أي إنّه يصل إليكم، إن طلبتموه، ومن دون أيّ عناءٍ من قبلكم؛ شرط ألّا تحيدوا عن الغاية في البحث عنه؛ وألّا تضعوا أمامكم هدفين: أوّلهما ملكوت الله، حبًّا به وثانيهما الأشياء الضروريّة التي تطلبونها، حبًّا بالملكوت، إذ ذاك فلن تنقصكم. السبب لذلك هو أنّكم لا تستطيعون أن تعبدوا ربّين لأنّ السعي إلى ملكوت الله كالخير الأكبر ثمّ الخيور الزمنيّة. لا يمكن أن تكون عيننا

بسيطة، ولا أنّ الله، ربًّا واحدًا إن لم نوجّه الباقي كلّه حتّى الضروريّ منه إلى ذلك الهدف الوحيد أي إلى ملكوت الله. ولكن، على مثال كلّ جنديّ يقبض أجرًا، هكذا فإنّ جميع من يبشّرون بالإنجيل يأخذون المأكل والملبس؛ غير أنّ الجنود بأجمعهم لا يحاربون حبًّا بخلاص الجمهوريّة لأنّ بينهم من هو جنديّ، رغبة في الأجر؛ وعلى هذا النحو فإنّ جميع خدّام الله لا يتبنّون خلاص الكنيسة لأنّ بينهم من لا يبغون سوى المنافع الزمنيّة، أجرًا لهم؛ أو يتوقون إلى الحصول على الاثنين معًا. ولهذا فقد قيل سابقًا: «لا يمكنكم أن تعبدوا ربّين»؛ علينا، إذن، أن نصنع الخير للجميع، بقلب سليم؛ حبًّا بملكوت الله، من دون سواه، من دون السعي إلى مكاسب زمنيّة سواءٌ أكانت غايةً وحيدة لنا أم كانت مقترنةً بملكوت الله؛ وهي التي يصنّفها الله تحت اسم الغد بقوله لنا: «لا تهتمّوا للغد» (متى ٦: ٣٤). وكلمة الغد لا تقال إلّا في الزمن حيث المستقبل يلي الزمن الماضي. وعليه، فعندما نصنع شيئًا ما، حسنًا، فلا نفكّر في الزمنيّات بل في الأبديّات. إذ ذاك يكون عملنا صالحًا وكاملًا. ويتابع الربّ قائلًا: «فللغد همومه» أي كلوا واشربوا والبسوا عند اللزوم؛ عندما تحتاجون إلى ذلك وكلّ شيء سيكون لكم ما دام أبوكم عارفًا بحاجاتكم «يكفي كلّ يوم شرّه» (متى ٦: ٣٤)، وحسبكم ما تحتاجون إليه من كلّ ذلك. أمّا ما يختصّ بكلمة شرّ فقد اختيرت لتشير إلينا بأنّها عقابٌ لنا، نتيجة الضعف والوهن، حتّى الموت الذي اكتسبناه بسبب الخطيئة، لا تزيدوا، إذن، من ثقل ذاك العقاب، بعدم اكتفائكم بتحمّل حاجات زمنيّة، بل بحثًا عن الوسائل، في خدمة الله تلبيةً لها.

٥٧- حذار من اتّهام خادم لله بمخالفة الشريعة الإلٰهيّة والاهتمام بالغد حين نراه يعمل على تزوّدٍ أمور ضروريّة، لنفسه أو لمن عُهد بهم

إليه، لأنّ الربّ الذي كانت الملائكة تخدمه تواضع وأعطى ذاته مثالًا كيلا يشكّك من يرى أحد خدّامه يلتمس حاجة لنفسه فقبلَ بصندوق مالٍ يؤمّن حاجات المعيشة؛ وهو الصندوق الذي تسلّمه يوضاس فسرقه بحسب ما جاءَ في إنجيل يوحنّا (يوحنّا ١٢ : ٦). واهتم بولس الرسول أيضًا بالغد فراح يكتب بهذا الخصوص: «أمّا بشأن جمع الصدقات للقدّيسين، فسيروا فيها أنتم على ما رتّبته في كنائس غلاطية. وهو أن يضع كلّ منكم في أوّل يوم من الأسبوع إلى جانب ما تيسَّر له ادّخاره، فلا يكن جمع الصدقات يوم قدومي إليكم. ومتى أتيت أرسلت الذين تختارونهم وزوَّدتهم برسائل ليحملوا ما جدتم به إلى أورشليم. وإن لزم الأمر أسافر بنفسي ويسافرون معي؛ سأقدُم إليكم بعد أن أمرّ في مقدونيّة وسأقتصر على المرور بها وربّما أقمت وشتوتُ بينكم لتسهّلوا إليّ سبيل السفر؛ لأنّي لا أريد أن أراكم هذه المرّة كعابر سبيل، بل أرجو أن أمكث بينكم مدّةً، بإذن الربّ؛ وسأظلّ في أفسس إلى العنصرة» (١ قور ١٦ : ١-٨). وإنّنا لنقرأ أيضًا في أعمال الرسل أنّهم قد استحصلوا على مأكولات تحسّبًا لمجاعة قريبة: «وفي تلك الأيّام نزل بعض الأنبياء من أورشليم إلى أنطاكية فقام أحدهم واسمه أغابس فأنبأ بوحي من الروح أن ستكون مجاعة شديدة في المعمورة كلّها وهي التي حدثت في أيّام كلوديوس فعزم التلاميذ على أن يرسلوا ما تيسَّر عند كلّ منهم، إسعافًا للأخوة المقيمين في اليهوديّة وفعلوا ذلك فأرسلوا معونتهم إلى الشيوخ بأيدي برنابا وشاول. (أعمال ١١ : ٢٧-٣٠). ولمّا أبحر بولس بدت المؤونة التي قدّموها إليه أنّها تفوق مؤونة يوم واحد». أمّا المقطع الذي ورد في إحدى رسائله وفيه يقول: «من كان يسرق فليكفّ عن السرقة. بل عليه أن يكدّ ويعمل بيديه ليستطيع أن يفعل الخير فيساعد المعوز» (أفسس ٤ : ٢٨) فالذين قد أساؤوا فهمه

يظنّون أنّه يتضمّن تناقضًا مع وصيّة الربّ القائلة: «أنظروا إلى طيور السماء كيف لا تزرع ولا تحصد ولا تخزن في الأهراء» (متى ٦: ٢٦) «واعتبروا بزنابق الحقل كيف تنمو فلا تجهد ولا تغزل» (متى ٦: ٢٨). بينما يريد الرسول من سامعيه أن يعملوا بأيديهم ليكونَ لهم ما يقدّمونه إلى الآخرين. وعندما يتكلّم على نفسه يقول إنّه عمل بيديه لئلّا يثقل على أحد (١ تسالونيكي ٢: ٩)، كما كتب عنه أنّه انضمّ إلى أخيلا ليعمل معه ويؤمّن عيشه (أعمال ١٨: ٣٢). ولا يبدو أنّه قد اقتدى بطيور السماء وزنابق الحقل؛ إنّما نرى من خلال هذا المقطع من الكتاب المقدّس ومن مقاطع أخرى كثيرة مشابهة أنّ الربّ لا يعيب من يحصّل تلك الموارد بوسائل بشريّة، بل يعيب فقط خادم الله الذي يعمل كسبًا لمغانم زمنيّة من دون ملكوت الله.

٥٨- إذن، إنّ الوصيّة بكاملها تختصر بهذه القاعدة التي تدعو إلى الاهتمام بملكوت الله حتّى عندما نتزوَّد الأمور الماديّة ولا نفكّرنّ بها حين نجاهد في سبيل ملكوت الله. إنطلاقًا من ذلك حتّى وإن افتقرنا إلى تلك الموارد؛ وذاك ما يسمح به الله غالبًا لكي يدرّبنا، فإنّ عزمنا لن يتزعزع بل بالأحرى فإنّه يزداد رسوخًا من جرّاء تلك التجربة لأنّ الرسول يقول: «إنّنا نفخر بالشدائد لعلمنا أنّ الشدائد تلد الصبر والصبر يلد الاختبار والاختبار يلد الرجاء والرجاء لا يخيّب صاحبه لأنّ محبّة الله أفيضت في قلوبنا بالروح القدس الذي وُهب لنا» (رومة ٥: ٣-٥). على أنّ بولس وهو يستعرض الضيقات والآلام لا يكتفي بذكر حالات الأسر والغرق وما شابهها بل يذكر أيضًا الجوع والعطش والبرد والعري. ولا يحقّ لنا أن نتصوّر في قراءَتنا لذلك أنّ الربّ تخلّى عن وعوده لأنّ الرسول في سعيه إلى ملكوت الله وبرّه قاسى الجوع والعطش والعري (٢قور ١١: ٢٣-٢٧)، ولو قيل لنا سابقًا «أطلبوا

ملكوت الله وبرّه وذلك كلّه تزادونه» (متى ١٦ : ٣٣). إنّ الطبيب الذي سلّمناه ذواتنا، بلا تحفُّظ، ومنه نلنا الوعد بالحياة الحاضرة والمستقبليّة يعلم متى يجب عليه، لخيرنا، أن يهبنا تلك الخيرات أو يمنعها عنّا، هو الذي يسوسنا ويوجّهنا في هذه الحياة بين ضيقٍ وتعزية لكي يثبّتنا بعدئذٍ في الراحة الأبديّة. إنّ الإنسان نفسه، حين يمنع العلف أحيانًا عن دابّته، فذلك لا يعني أنّه يهملها، بل هو يحرص على سلامتها.

الفصل الثامن عشر:
وحده الله يعرف ما في قلب الإنسان

٥٩- ولمّا كنّا قادرين، ونحن ندّخر تلك الموارد للمستقبل، على الاحتفاظ بها، إن لم يكن لنا مجال لإنفاقها للحال، فإنّنا نستطيع أن نتصرّف بنيّات متنوّعة، ببساطة قلب أو برياء، فللربّ الحقّ في أن يقول: «لا تدينوا لئلّا تُدانوا لأنّكم بما تدينون تدانون وبالكيل الذي به تكيلون يُكال لكم» (متى ٧: ١-٢). أظنّ أنّ الربّ يأمرنا، ببساطة هنا، بأن نحسن الظنّ في كلّ الأعمال التي تشكو من ريبة في النوايا. وحين يقول: «من ثمارهم تعرفونهم» (متى ٧: ١٦)، فإنّه يتكلّم على الأعمال ذات الغاية الواضحة التي لا يمكن أن تصدر عن مبدأ سليم كالرذيلة والتجديف والسرقة والسكر وما شابهها ممّا يسمح لنا بإدانتها على حدّ قول بولس الرسول: «والحال، فهل لي أن أدين الذين في الخارج؟ أو ليس لكم أن تدينوا الذين في الداخل؟» (١قور ٥ : ١٢). أمّا بشأن طبيعة الأطعمة فإنّنا نستطيع، بنيّة سليمة وقلب بسيط، بعيدًا عن كلّ شهوة، أن نتناول كلّ طعام يختصّ بالإنسان. لقد أبى الرسول نفسه أن يُدان من يأكلون اللحم ويشربون الخمر من قبَل الذين يعفُّون عن تلك

الأطعمة؛ فقال: «لا يحتقرنَّ من يأكل من ليس يأكل؛ ولا يدينَنَّ من لا يأكل من يأكل، مضيفًا: أنت من أنت يا من تدين خادم غيرك؟ فلسيّده يسقط أم يثبت؟» (رومة ١٤: ٣-٤). وفي الواقع فإنّ أهل رومة كانوا يريدون أن يحكموا، سواءٌ بسواء على الأعمال الصادرة عن نيّة سليمة، مستقيمة وشريفة وعلى تلك الصادرة عن نيّة سيّئة؛ ويدينون خفايا القلوب التي احتفظ الله لنفسه بالحكم عليها.

وبذاك يتعلّق أيضًا ما يقوله الرسول في موضع آخر: «لا تدينوا أحدًا قبل الأوان؛ بل انتظروا مجيء الربّ، هو الذي ينير خفايا الظلمات ويُظهر سرائر القلوب، وعندئذ ينال كلُّ واحد من الله ما يعود عليه من الثناء» (١قور ٤: ٥). إذن، هنالك أعمال تُخفى علينا الغاية منها؛ وما يمكن أن يصدر منها عن نيّة حسنة أو عن سوء نيّة؛ ومن الجسارة الحكم عليها وبخاصّة إدانتها. إنّما يأتي يوم تحاكم فيه عندما ينير الربّ الخفايا المظلمة ويكشف عن السرائر. يقول الرسول في موضع آخر: «من الناس مَنْ خطاياهم ظاهرة وتسبقهم إلى القضاء» (١تيمو ٥: ٢٤ و٢٥)، وهو يعني بالخطايا الظاهرة الأعمال الواضحة الأهداف وهذه فإنّها تسبق المجرم إلى القضاء، أي أنّ الحكم عليها ليس متهوّرًا؛ ثمّ تأتي الأعمال الخفيّة التي يعلن عنها في حينها. وذاك العمل ينطبق أيضًا على الأعمال الصالحة لأنّ الرسول يضيف قائلًا: «كذلك فالأعمال الصالحة واضحة؛ والتي ليست صالحة فلا يمكن أن تبقى خفيّة» (١تيمو ٥: ٢٤-٢٥). فلنحكم، إذن، على الظاهر وليقضِ الله على الخفيّ لأنّ ما خفي، خيرًا كان أم شرًّا، لا يمكن أن يبقى خفيًّا عندما يحين اليوم الذي فيه تُكشف الخفايا.

٦١- إنّما يجب علينا أن نتجنّب الحكم المتهوّر في حالتين: جهل

الهدف من العمل وجهل مصير الفاعل سواءٌ أكان خيرًا أم شرًّا؛ وعلى سبيل المثال، رجلٌ ما يشكو ألمًا في معدته ويمتنع عن الصوم؛ أنت لا تصدّقه وتتّهمه بالشراهة؛ فذاك هو حكم متهوّر؛ أو أنّه شره ومدمن على السكر ولا شكّ في ما هو عليه ولذلك فإنّك توبّخه وتعتبره غير قابل للإصلاح وذاك أيضًا حكم متهوّر. إذن، إيّانا والحكم على الأفعال التي نجهل أسبابها؛ حتّى وإن كان سوؤُها ظاهرًا فلا نيأسنّ قطّ من مريض؛ وبذلك نتحاشى حكمًا قيل فيه: «لا تدينوا لئلّا تدانوا» (متى ٧: ١).

٦٢- وإنّنا لنعجب من هذا القول: «فكما تدينون تدانون ويكال لكم بما تكيلون» (متى ٧: ١). وماذا يحدث إن أصدرنا حكمًا متهوّرًا؟ وهل يكون حكم علينا مماثلًا؟ أو إن كلْنا بمكيال جائر فهل يكيل لنا الله بمثله؟ لا شكّ في أنّ المكيال هنا يعني الحكم. كلّا! إنّ الله لا يتهوَّر في أحكامه ولا يظلم أحدًا فيها؛ بيد أنّ هذا الكلام يعني أنّ الجسارة في حكمك على القريب تعتبر حتمًا مادّة عقابٍ لك إلّا إذا توهّمت بأنّ الظلم يؤذي المظلوم الظالم؛ وفي أغلب الأحيان فالعكس هو الصحيح لأنّه يسيء إلى الظالم فوق ما يسيء إلى المظلوم. أيّ شرّ ألحق بالشهداء جورُ مضطهديهم؟ لقد ألحق شرًّا كبيرًا بالمضطهدين أنفسهم. لأنّه، وإن كان قد اهتدى بعضهم، مع ذلك فإنّ خبثهم كان يعميهم وهم يضطهدون. وعلى هذا النحو فإنّ الحكم المتهوّر لا يؤذي عادة المحكوم بل يؤذي بصورة مطلقة ذاك الذي يصدره. وأظنّ أنّه انطلاقًا من تلك القاعدة قيل: «من يأخذ بالسيف يهلك» (متى ٢٦: ٥٢)، لأنّه كم من أناس ضربوا بالسيف ولم يهلكوا بالسيف، حتّى بطرس نفسه؟ ولكن، لا نظنّنّ أنّ الرسول قد نجا من هذا العقاب بسبب الصفح الذي ناله على خطاياه. ثمّ، أليس من العبث أن ننظر إلى

الموت بالسيف الذي نجا منه بطرس على أنّه أمرٌ من الموت على الصليب الذي حُكم به عليه؟ إذن، وما القول عن اللصَّين اللذين صلبا مع الربّ الذي استحقّ أحدهما الصفح والغفران بعد صلبه في حين أنّ الآخر لم ينله؟ (لوقا ٢٣ : ٣٣-٤٣). وهل هذان اللصّان قد قتلا صلبًا ضحاياهما فاستحقّا الميتة عينها؟ من السخافة التفكير بهذا الشكل! وما معنى الكلمات التالية إذن: «من أخذ بالسيف بالسيف يؤخذ سوى خطيئة تتسبّب بهلاك النفس»؟

الفصل التاسع عشر: في القذى والخشبة

٦٣- إنّ كلّ ما يقوله الربّ هنا يهدف إلى تحذيرنا من الحكم المتهوّر والجائر لأنّه يريد أن تكون أعمالنا كلّها صادرة عن قلب سليم، متّخذين من الله غاية لنا وحيدة ولأنّ الدافع إلى الكثير من أعمالنا يبقى مجهولًا، يكون الحكم عليها متهوّرًا، ولأنّ الذين ينقادون بسهولة إلى إصدار حكم متهوّر وإلى اللوم هم الذين يؤثرون الانتقاد والإدانة على الإصلاح والتحسين؛ وذاك هو العيب الناتج من الكبرياء والحسد. ولهذا كلّه يقول الربّ: ما لك ترى القذى في عين أخيك ولا ترى الخشبة في عينك؟ مثلًا، هذا إنسان خطئ تحت تأثير الغضب وأنت خطئت من حقد! إنّ المسافة بين الغضب والحقد كالتي بين القذى والخشبة! الحقد غضب متأصّل في النفس؛ ومع الزمن يدعى، عن حقّ، خشبة؛ وقد يحدث لك وأنت تغضب على إنسان أن تسعى إلى إصلاحه؛ مع أنّه يستحيل عليك القيام به وأنت حاقد.

٦٤- «كيف تقول لأخيك: «دعني أخرج القذى من عينك والخشبة في عينك أنت؟ أيّها المرائي أخرج الخشبة من عينك أوّلًا، عندئذ تبصر

فتخرج القذى من عين أخيك» (متى ٧: ٤-٥). يعني، ابدأ بنزع الحقد من نفسك ثمّ باشر في إصلاح من تحبّ. وإنّه لقد قال أيّها المرائي بحقّ. لأنّه من حقّ الأبرار والصلاح التنديد بالعيوب؛ أمّا الأشرار فإن قاموا بذلك فإنّهم يتّخذون دورًا ليس لهم كالممثّلين الذين يخفون وجوههم تحت قناع فيتظاهرون بما ليسوا عليه؛ وبما أنّهم يظهرون بخلاف ما هم عليه في الحقيقة فإنّهم يسمَّون مرائين. إنّه لانتقام مشؤوم، حذار منه. يُنصّبون أنفسهم، عن حقد وحسد، قضاة ويتّهمون الناس بجميع أنواع العيوب ويتظاهرون بمظهر الحكماء النصوحين.
علينا، إذن، عندما نضطرّ إلى تأديب إنسانٍ ما، أن نلجأ في عملنا إلى اللطف والحكمة ونتساءَل بجديّة عمّا إذا لم نكن قد وقعنا على الإطلاق في مثل ذلك العيب أو إن كنّا قد شفينا منه؛ وعلينا بعدئذ أن نذكر أنّنا بشر؛ وإن كنّا قد أتيناه، فلنكن رفقاء بما هو ضعف عامّ كيلا نلوم أن نؤنّب، عن حقد، بل عن شفقة؛ فإمّا أن يفيد المذنب من نصحنا أو أن يزداد سوءًا لأنّ النتيجة غير مضمونة؛ إنّما نتأكّد، عل الأقلّ، من أنّ عيننا ظلّت سليمة. أمّا إذا انكشف لنا أنّ العيب الذي ننوي انتقاده في الآخرين كامنٌ فينا فلنحذر التأنيب والتوبيخ ولنكتفِ بالبكاء مع المذنب ولندْعُه، لا إلى الإذعان إلى نصحنا، بل إلى التعافي معنا.

٦٥- عندما كان الرسول يقول: «صرت لليهود يهوديًّا لأربح اليهود وصرت لأهل الشريعة من أهل الشريعة وإن لم أكن من أهل الشريعة لأربح أهل الشريعة؛ وصرت لمن ليس لهم شريعة كالذي ليس له شريعة لأربح الذين ليس لهم شريعة مع أنّي لستُ بلا شريعة من الله. فأنا في حكم شريعة المسيح وصرت للضعفاء ضعيفًا لأربح الضعفاء وصرت للناس كلّهم كلّ شيء لأربح الجميع» (١قور ٩: ٢٠-٢٢). وعندما كان يتكلّم هكذا فلم يكن قوله نفاقًا كما ادّعاه بعضُهم ممَّن أرادوا أن

يدعموا خبثهم المقيت بسلطان ذاك المثال العظيم، إنّما قال ذلك، متبيّنًا بحكمة، إن صحّ التعبير، علّة من كان يريد مؤاساته؛ ولقد سبق أن نبّه إلى ذلك قائلًا: «ومع أنّي حرٌّ لدى الناس فقد جعلت نفسي عبدًا لجميع الناس كي أربح أكثرهم» (١ قور ٩: ١٩). ورغبةً في أن يفهمنا أنّه لم يفعل ذلك رياءً، بل بدافعٍ من تلك المحبّة التي تجعلنا نشفق على أمثالنا الضعفاء يقول لنا أيضًا في موضع آخر: لأنّكم، أنتم، يا إخوتي، قد دُعيتم إلى الحرّيّة فلا تجعلوا هذه الحرّيّة سبيلًا لإرضاء الجسد؛ بل عليكم أن يصير، بالمحبّة، بعضكم عبيدًا لبعض» (غلاطية ٥: ١٣)، غير أنّ ذلك لن يكون إلّا بقدر ما ننظر إلى عاهة القريب كأنّها عاهتنا فنحتملها، بصبرٍ، إلى أن يبرأ من نريد له الخلاص منها.

٦٦- إذن، علينا ألّا نوجّه اللوم والتوبيخ إلّا نادرًا وعندما تدعو الضرورة القصوى؛ وعندما نفعل ذلك فلا يكوننّ لغاية شخصيّة بل خدمةً لله، الغاية القصوى المتوخّاة؛ ومن ثمّ، لا نفعلنّ شيئًا، عن رياء، فننزع أوّلًا من عيننا الحسد والخبث والرياء لنرى كيف ننزع القذى من عين أخينا؛ إذ ذاك نرى القذى بعين الحمامة، بعينيْ عروس المسيح البهيّتين» (نشيد الأناشيد ٤: ١)؛ تلك الكنيسة المجيدة التي اصطفاها الله لا وصمة فيها ولا غضن (أفسس ٥: ٢٧).

الفصل العشرون

٦٧- ولكن، بما أنّ بعض الناس، وإن رغبوا في الطاعة لوصايا الله، قد ينخدعون بلفظة البساطة هذه فيتصوّرون أنّ إخفاء الحقيقة أحيانًا خطيئة كما هو الكذب حتّى إذا ما كشفوا إلى محدّثيهم ما لا طاقة لهؤلاء باحتماله يلحقون بهم الأذى أكثر ممّا لو أبقوا تلك الأمور طيّ

الكتمان إلى الأبد؛ وإنّي لأقول إنّ الربّ، تفاديًا لذلك الضرر، قد أبدى اهتمامًا بالغًا فأضاف قائلًا: «لا تعطوا الكلاب ما هو مقدّس؛ ولا تلقوا لؤلؤكم إلى الخنازير لئلّا تدوسه بأرجلها، ثمّ ترتدّ إليكم فتمزّقكم» (متى ٧: ٦). إنّ الربّ نفسه، وحاشا له أن يكذب، يكشف لنا عن إخفائه بعضَ الحقائق قائلًا: «لديّ أمور كثيرة لا تطيقون احتمالها الآن» (يوحنا ١٦: ١٢). ويقول بولس الرسول: «وإنّي أيّها الأخوة، لم أستطع أن أكلّمكم كلامي لأناسٍ روحانيّين، بل لبشر كالأطفال في المسيح، قد غذوتكم باللبن الحليب لا بالطعام لأنّكم ما كنتم تطيقونه ولا أنتم تطيقونه الآن، فإنّكم لا تزالون بشرًا» (١قور ٣: ١-٢).

٦٨- أمّا بشأن النهي عن أن نعطي الكلاب المقدّسات ونلقي جواهرنا أمام الخنازير فعلينا أن ندقّق مليًّا في ما يقصد بالمقدّسات واللآلئ والخنازير. مقدَّسٌ هو ما لا يجوز أن ننتهك حرمته أو ندنّسه وإلّا ارتكبنا جرمًا؛ وهذا الجرم نرتكبه لمجرّد أنّنا حاولنا أو أردنا، وإن بقيت المقدّسات بحدّ ذاتها مصونة ولم يمسسها فساد. أمّا اللآلئ فهي الخيور الروحيّة التي يجب علينا أن نحفظ لها المقام السامي؛ وبما أنّها خفيّة، علينا أن نخرجها من العمق نوعًا ما، بعد أن نحطّم الغلاف الرمزيّ الذي هو بمثابة قشرة لها. يحقّ لنا أن نعتبر أنّ اللؤلؤة والشيء المقدّس واحدٌ مقدّس لا يجوز تدنيسه ولؤلؤة لا يجوز احتقارها؛ على أنّنا نسعى إلى إفساد ما لا نريده على حاله من الكمال ونعمل على احتقار ما نعتبره دنيئًا وكأنّه أقلّ شأنًا منّا؛ وذاك هو ما يدعو إلى القول إنّ كلّ غرض محتقر تدوسه الأقدام. وعليه فكما أنّ الكلاب تندفع إلى تمزيقه ولا تبقي على شيءٍ منه يقول الربّ: «لا تعطوا الكلاب المقدّسات؛ ومع أنّ الحقيقة لا تقبل التمزيق والإفساد بل تبقى كاملة

ومصونة من الفساد، مع ذلك يجب النظر إلى نيّات الأعداء الذين يقاومونها بشراسة ويحاولون أن يمحقوها بقدر ما يستطيعون. أمّا الخنازير، وإن لم تكن كالكلاب تعضّ، فإنّها تنجّس حين تدوس بالأقدام ولهذا يقول: «لا تلقوا لآلئكم إلى الخنازير لئلّا تدوسها ثمّ ترتدّ لتمزّقكم». وعلى هذا النحو يمكننا، من دون أن نجرح الإحساس، أن ننعت بالكلاب أولئك الذين يهاجمون الحقيقة وبالخنازير أولئك الذين يحتقرونها.

٦٩- إنّه يقول: لئلّا ترتدّ عليكم فتمزّقكم ولا يقول هذا عن اللآلئ. والحال، إنّها بعد أن تدوسها، حتّى وإن ارتدّت لتسمع شيئًا ما فإنّها تمزّق من ألقى إليها باللآلئ التي داستها إذ قد يصعب وجود وسيلة نرضي بها من يدوس اللآلئ، أي من يزدري الحقائق الإلهيّة التي استلزم اكتشافها كلفةً عالية. وإنّني لستُ أرى كيف يمكن تثقيف أمثال أولئك الناس بسهولة، علمًا بأنّ الكلب والخنزير حيوانان نجسان؛ ومن ثمّ يجب على الإنسان أن يحذر من أن يكشف أمرًا لمن لا يفهم؛ يُفضّل البحث عمّا هو خفيّ من دون احتقار الظاهر أو إفساده. ولسنا نرى سببًا دفعهم إلى نبذ حقائق واضحة وهامّة جدًّا سوى ما انطووا عليه من حقد وازدراء؛ لقد أضفى عليهم الحقد لقب الكلاب ووصفهم الازدراء بالخنازير. غير أنّ كلّ نجاسة، أيًّا تكن، تنبع من محبّة الأمور الزمنيّة، أي من حبّنا لهذا العالم الذي يُطلب منّا أن نتخلّى عنه لنكون أطهارًا. إذن، كلّ من أراد أن يكون ذا قلبٍ نقيّ وسليم، عليه ألّا يظنّ أنّه قد أخطأ لإخفائه أمرًا ما، إن لم يكن من يخفيه عليه في حال تمكّنه من فهمه؛ إنّما لا يجوز، انطلاقًا من تلك الحال، الاستنتاج أنّ الكذب مسموح به لأنّ إخفاء الحقيقة لا يعني السماح بالكذب. ولهذا يجب، إذن، العمل على إقصاء ما يحول دون الفهم حتّى إذا كان من تخاطبه

غير طاهر وبالتالي لا يفهم. إذّاك يجب أن تسعى بكلامك وأعمالك إلى أن تجعله طاهرًا بقدر ما أمكن.

٧٠- وبما أنّنا نرى أنّ ربّنا يقول كلامًا ما كان سامعوه الكثيرون ليقبلوه، إمّا عن رفض أو ازدراء، فلا نظنّنّ أنّه أعطى القدّيسين الأقداس أو ألقى لآلئه أمام الخنازير لأنّه ما كان يتحدّث إلى من لم يكونوا قادرين على الفهم بل إلى من كانوا أهلًا لذلك؛ وما كانت نجاسة الآخرين سببًا لإهمال هؤلاء. وعندما كان يسأله هؤلاء الذين شاؤوا أن يجرّبوه كان يجيبهم بما يكفيهم لسدّ آذانهم مع أنّهم يتحرّقون بسمّ يتجرّعونه بدلًا من أن يتغذّوا بما يقدّمه إليهم؛ مع ذلك فقد كانوا يوفّرون لمن كان باستطاعتهم أن يفهموا فرصة لتعلُّم الكثير من الأمور المفيدة. إنّي أقول ذلك، حتّى إذا لم نستطع أن نجيب عن سؤالٍ ما، لا نعتذر قائلين إنّنا لا نريد أن نعطي الكلاب المقدّسات ولا أن نلقي اللآلئ أمام الخنازير. أمّا من استطاع أن يجيب فعليه أن يجيب، أقلّه على الآخرين الذين قد ييأسون إن اقتنعوا بأنّه لا حلّ للسؤال المطروح؛ وإنّي لأفترض أنّ السؤال متعلّق بعقيدة الخلاص إذ إنّ بطّالين كثيرين يطرحون أسئلة لا طائل تحتها، نافلةً، وربّما تكون مؤذية؛ ومع ذلك فالجواب عنها ضروريّ، أقلّه لكي يفهم السائل أنّ طرحها ممنوع. قد يكون مفيدًا، بعض الأحيان، إعطاء جواب عن سؤال ذي فائدة كما فعل الربّ حين سأله الصدوقيّون لمن تكون في القيامة امرأة تزوّجت تباعًا من سبعة، فكان جوابه: في القيامة لا يُزوّجون ولا يتزوّجون بل يكونون كملائكة في السماء. وأحيانًا ينبغي الإجابة عن السائل بسؤال يتناول موضوعًا آخر فيكون الجواب عنه من نوعه، هذا إن أجاب؛ وإلّا فلن يجد الشهود ضيرًا في أن يظلّ سؤاله بلا جواب. ذاك هو ما حصل عندما طُرح سؤال على المسيح ليجرّبوه إذا كان دفع الجزية واجبًا فسأل

بدوره، لمن تكون الصورة على قطعة النقد التي قدّموها إليه. وإذ قال الفرّيسيّون إنّها للقيصر، استخلص المسيح من جوابهم قائلًا: «أدّوا ما لقيصر لقيصر وما لله إلى الله» (متى ٢٢: ١٦-٣٤).

وفي مرّة أخرى، سأله رؤساء الكهنة وشيوخ الشعب، بأيّ سلطة يفعل ما يفعل، فوجّه إليهم سؤالًا حول معموديّة يوحنّا؛ وإذ رفضوا أن يجيبوه خوفًا من أن يرتدّ جوابهم عليهم وقد كانوا يخافون الجمع إن قالوا سوءًا في يوحنّا، قال لهم: «ولا أنا أقول لكم بأيّ سلطانٍ أفعل هذا» (متى ٢١: ٢٣-٢٧). والذين كانوا هناك وجدوا أنّه أجاب بالصواب؛ ذاك أنّ الفرّيسيّين كانوا يتظاهرون بأنّهم يجهلون ما كانوا يعرفونه تمام المعرفة ولم يريدوا الإفصاح عنه. ولقد كان أحرى بهم، إذ طلبوا جوابًا عن سؤالهم، أن يسألوا أنفسهم أوّلًا؛ إذن، لكانوا حصلوا على الجواب؛ بيد أنّهم بعثوا يسألون يوحنّا من يكون؛ أو بالأحرى فقد أرسلوا إليه كهنة ولاويّين وفي اعتقادهم أنّه المسيح فأنكر ذلك كليًّا وشهد للرّبّ (يوحنا ١: ١٩-٢٧). ولعلّهم فهموا من خلال تلك الشهادة بأيّ سلطان يعمل المسيح؛ بيد أنّهم تظاهروا بالجهل وطرحوا سؤالًا لتكون لهم فرصة النيل من المخلّص.

الفصل الحادي والعشرون

٧١- أمّا بشأن النهي عن إعطاء المقدّسات للكلاب وإلقاء اللآلئ أمام الخنازير فقد كان بوسع من يسمع ويعي ما هو عليه من فقرٍ وضعف فيُنهى عن إعطاء ما ليس يملك حتّى الساعة أن يتقدّم ويقول: ما هي، إذن، تلك المقدّسات التي لا يحقّ لي أن أعطيها الكلاب وما هي تلك اللآلئ التي لا يحقّ لي أن أطرحها للخنازير ولست أراها لي حتّى الآن؟

وانطلاقًا من ذلك يضيف الربّ قائلًا: إسألوا تعطوا، اطلبوا تجدوا، اقرعوا يُفتح لكم، لأنّ من يسأل ينل ومن يطلب يجد ومن يقرع يُفتح له» (متى ٧: ٧-٨). السؤال يبغي الحصول على الصحّة وسلامة النفس ليتمكّن السائل من إتمام الوصايا؛ وغاية الطلب اكتشاف الحقيقة. ولمّا كانت السعادة التامّة تقوم على العمل والمعرفة فالعمل يتطلّب التمتّع الحرّ بالقدرات والتأمّل وجلاء الأمور؛ إذن، ينبغي أن يطلب الإنسان الشيءَ ليناله ويبحث عن الآخر ليجده؛ بيد أنّ المعرفة في هذه الحياة طريقٌ يسلكه الإنسان أكثر من خير يمتلكه؛ لأنّه عندما يجد الطريق الحقّ إذ ذاك يصل إلى امتلاك الخير الذي لن يُعطى إلّا لمن يقرع الباب.

٧٢- ولكي نجعل هذه الأشياء الثلاثة محسوسة وملموسة أي السؤال والسعي وقرع الباب، نعطي مثلًا: إفترضْ أنّ رجلًا يشكو علّة في قدميه تمنعه عن المشي؛ بادئ ذي بدءٍ، يجب أن يشفى من مرضه ويتقوّى ليستطيع أن يمشي وتلك هي الغاية من هذه الكلمة: «إسألوا». ولكن، ماذا ينفع المشي وحتّى الركض؟ ماذا ينفع إذا اتّخذ طريقًا غير سويّ وتاه فيه؟ النقطة الثانية، إذن، هي في أن يجد الطريق إلى الهدف المطلوب حتى إذا وجده وبلغ المنزل الذي ينوي السكنى فيه وكان الباب مغلقًا فلا السير ينفع ولا الوصول ينفع إذا بقي الباب مغلقًا، لذلك يقول الربّ: «إقرعوا» (يوحنا ١: ١٩).

٧٣- والحال فإنّ الذي لا يُخلُّ بوعوده قد أعطانا ويعطينا أملًا كبيرًا لأنّه يقول: «من يسأل ينلْ ومن يطلب يجد ومن يقرع يُفتح له» (متى ٧: ٨). إذن، فالثبات على الطلب ضروريّ، حصولًا على ما نسأل، ووجودًا لما نبحث عنه وانفتاحًا لما نقرع وحين نقرع. فكما أنّ

الربّ قد أعطى مثل عصافير السماء وزنابق الحقل لكي يعزّز في قلوبنا الأمل بأنّ القوت لن ينقصنا كذلك هي الكسوة، رافعًا على هذا النحو عقلنا من الأدنى إلى الأكبر بقوله: «من منكم إذا سأله ابنه رغيفًا يعطيه حجرًا؟ أو سأله سمكة يعطيه حيّة؟ فإذا كنتم أنتم الأشرار تعرفون أن تعطوا العطايا الصالحة لأبنائكم، فكم أحرى بأبيكم الذي في السماوات بأن يعطي ما هو صالح للذين يسألونه؟» (متى ٧: ٩-١١). وأنّى للأشرار أن يعطوا ما هو حسن؟ غير أنّ الربّ يسمّي هنا أشرارًا محبّي هذا العالم والخطأة. أمّا الأشياء الحسنة التي يعطونها فهي حسنة بمفهومهم، لأنّهم هكذا يعتبرونها؛ وإذا كانت حسنة بطبيعتها فهي زائلة ومناسبة لهذه الحياة البائسة؛ وكلّ شرّير يعطيها فإنّه لا يعطيها من ذاته «لأنّ الأرض وملأها للربّ» (مزمور ٢٣: ١) «صانع السماوات والأرض والبحر وجميع ما فيها» (مزمور ١٤٥: ٦). فكم علينا أن نرجو أنّ الله يعطينا ما نسأله من خيرات ولن يخدعنا فيعطينا شيئًا بدلًا من آخر، إن كنّا نحن الأشرار نعرف أن نعطي ما نُسأل لأنّنا لا نغشّ أولادنا؛ وكلّ عطيّة حسنة نقدّمها إليهم ليست منّا بل من الله.

الفصل الثاني والعشرون

٧٤- إنّ الثبات والقوّة الضروريّة للسير في سبيل الحكمة يكمنان في الأخلاق الحميدة التي تصل إلى حدّ الطهارة وسلامة القلب التي تحدّث الربّ عنها طويلًا وصولًا إلى هذه النتيجة فقال: «كلّ ما تريدون أن يفعله الناس لكم فافعلوه أنتم لهم، هذا هو الناموس والأنبياء» (متى ٧: ١٢). وإنّنا لنقرأ في النسخ اليونانيّة: «إفعلوا أنتم للناس كلّ ما تريدون أن يفعله الناس لكم» وأظنّ أنّ اللاتين قد أضافوا كلمة «خير»

توضيحًا للفكرة. وفي الواقع قد يحدث أن يطلب أحدهم، متسلّحًا بذاك النصّ، ارتكاب جريمة بحقّه، مثلًا كان يُدفع به إلى ارتكاب عمل أثيم كالإفراط في الشرب حتّى السكر ويبدأ هو الأوّل يعمل لغيره ما يريده من الآخر لنفسه. وذاك على ما أظنّ وتحاشيًا لذلك التفسير الخاطئ أو لتوضيح المعنى بوجهٍ أفضل بعد هذه الكلمات: «وهكذا فكلّ ما تريدون أن يعمله الناس لكم» وقد أضيفت لفظة من «خير» حتّى إن فرغت النسخ اليونانيّة فيجب إصلاحها: إنّما من ذا يجرؤ على ذلك؟ إذن يجب القبول بأنّ الفكرة كاملة بمعزل عن تلك الإضافة ونفهم عبارة «كلّ ما تريدون» بمعناها الحقيقي غير المبتذل. وليس من إرادة إلّا للخير لأنّ الأعمال الشرّيرة والأثيمة هي ثمرة الشهوة من دون الإرادة. ولا يستعمل الكتاب المقدّس من دون الكلمة بمعناها الأصليّ؛ ولكن عند اللزوم فإنّها تتشبّث بها إلى حدٍّ أنّه يستحيل إعطاؤها معنى آخر.

٧٥- والحال، يبدو أنّ هذه الوصيّة تتعلّق بمحبّة القريب، من دون التساوي مع محبّة الله لأنّ الربّ يقول لنا في موضع آخر بوجود وصيّتين ترتبط بهما الشريعة كلّها والأنبياء (متى ٢٢: ٤) ولو أنّه قيل: كلّ ما تريدون أن يفعله الناس لكم، افعلوه أنتم لكانت الوصيّتان قد انحصرتا في صيغة واحدة وكنّا أسرعنا فقلنا إنّه، نظرًا إلى رغبة كلّ واحدٍ في أن يكون موضوع حبٍّ من الله والناس وما دام الأمر قد صدر بأن نصنع ما نتمنّاه لأنفسنا، فمحبّتنا لله وللقريب أصبحت إلزاميّة علينا. ولكن طالما يقول الربّ بصراحة: «كلّ ما تريدون أن يفعله الناس لكم افعلوه أنتم لهم» (متى ٧: ١٢)، يبدو أنّ ذلك يعني ببساطة: «أحبب قريبك حبّك لنفسك»، من دون أن نغفل ما يضيفه هنا قائلًا: «هذا هو الناموس والأنبياء» (متى ٢٢: ٣٩-٤٠). وبشأن هاتين الوصيّتين لم يقل بهذا يتعلّق الناموس والأنبياء وحسب، بل أضاف: «بهما يختصر الناموس

كلّه والأنبياء» أي النبوءات كلّها. وبما أنّه لم يستعمل هنا كلمة: «كلّه» فهو يحتفظ بمكان للوصيّة الأخرى، وصيّة محبّة الله. إنّ هذه المسألة تعني للوقت الحاضر ذوي القلب السليم؛ وإذ يخشى من أن نبدي قلبًا مبطَّنًا تجاه الذين يمكن أن تخفى عليهم القلوب، أي تجاه الناس، وجب إعطاء هذه الوصيّة؛ ما من إنسان، تقريبًا، يرغب في أن يتعاطى مع ذي قلبٍ مبطّن؛ ومن غير المحتمل لامرئ أن يعطي شخصًا آخر شيئًا ما بقلبٍ سليم إن لم يطرح عنه كلّ تطلّع إلى مكسبٍ زمنيّ ولم يعمل بتلك النيّة المترفّعة التي سبق أن أسهبنا في شرحها سابقًا حينما كنّا نتكلّم على العين البسيطة.

٧٦- إذن، فالعين التي استعادت صفاءَها ونقاءَها تصبح قادرة على أن ترى نورها الداخليّ وتتأمّل فيه، لأنّها عين القلب؛ يملك تلك العين هذا الذي يرغب في أن يجعل أعماله صالحة حقًّا لا إرضاءً للناس، بل، إن حدث له أن أرضاهم، فإنّه يسعى من خلال ذلك إلى خلاص أخوته وتمجيد الله، لا إلى مجد شخصيّ باطل، إنّه لا يسعى إلى خلاص القريب بغية الحصول على ما هو ضروريّ له في الحياة الدنيا؛ ولا يشجب اعتباطيًّا النيّة والإرادة في عملٍ لا تظهر فيه النيّة والإرادة جليّتين؛ وإنّها لعينُ من يؤدّي للآخر جميع ما أمكن من خدمات كما يتمنّاها لنفسه؛ أي من دون أن ينتظر منها لذاته أيّ نفعٍ زمنيّ. ذاك هو القلب السليم النقيّ الساعي إلى الله: «طوبى لأنقياء القلوب لأنّهم يعاينون الله» (متى ٥ : ٨).

الفصل الثالث والعشرون

٧٧- ولكن، بما أنّ ذلك هو نصيب القليلين فقد بدأ الربّ كلامه

على ضرورة طلب الحكمة وامتلاكها لكونها شجرة الحياة» (سفر الأمثال ٣: ١٨). على أنّ البحث عنها وامتلاكها أي التأمّل فيها فقد أعدّا العين لذلك من خلال ما قيل آنفًا تتمكّن به من معرفة السبيل المحصور والباب الضيّق تجاوبًا مع ما يقوله الربّ: «أدخلوا من الباب الضيّق لأنّ الباب واسع والطريق المؤدّية إلى الهلاك رحبة وكثيرون هم الذين يسلكونها. وما أضيق الباب وأحرج الطريق المؤدّية إلى الحياة وقليلون هم الذين يجدونها» (متى ٧: ١٣-١٤). إنّه لا يقول بأنّ نير الربّ قاسٍ وحمله ثقيل؛ بل يقول فقط بأنّ قليلين هم الذين يريدون أن يحملوا النير حتّى النهاية لقلّة إيمانهم بالذي يصرخ قائلًا: «تعالوا إليّ أيّها التعبون والثقيلو الأحمال وأنا أريحكم؛ إحملوا نيري عليكم وتعلّموا منّي أنّني وديع ومتواضع القلب لأنّ نيري لذيذ وحملي خفيف» (متى ١١: ٢٨-٣٠). وتحديدًا، من هنا بدأت الخطبة بالكلام على الودعاء والمتواضعين؛ إنّما كثيرون يطرحون عنهم ذلك النير الليّن والحمل الخفيف؛ وقليلون هم الذين يرتضونه؛ ولذلك فإنّ الطريق إلى الحياة صعبة وضيّق بابها.

الفصل الرابع والعشرون: إحذروا الأنبياء الكذبة

٧٨- الحذر ضروريّ، إذن، بنوع خاصّ، ممّن يعدون بالحكمة ومعرفة الحقيقة وهم منهما براء، أمثال الهراطقة الذين يحاولون غالبًا أن يقدّموا أنفسهم، استنادًا إلى ضآلة عددهم؛ فبعد أن قال الربّ إنّ الذين يهتدون إلى الباب الضيّق من خلال الطريق الصعبة هم قليلون، يتوهّمون أنّهم هم المعنيّون بالعدد القليل، غير أنّ الربّ يسوع أضاف قائلًا: «إيّاكم والأنبياء الكذبة فإنّهم يأتونكم بلباس الحملان، وهم في

باطنهم ذئاب خاطفة» (متى ٧: ١٥). بيد أنّ تلك الذئاب لا تضلّل العين السليمة التي تعرف أن تميّز الشجرة من ثمارها لأنّ الربّ يقول: من ثمارهم تعرفونهم، مضيفًا ما يلي من تشابيه: هل يُجنى من الشوك عنب أو من العلّيق تين؟ كذلك كلّ شجرة طيّبة تثمر ثمارًا طيّبة، والشجرة الخبيثة تثمر ثمارًا خبيثة. فليس للشجرة الطيّبة أن تثمر ثمارًا خبيثة ولا للشجرة الخبيثة أن تثمر ثمارًا طيّبة. وكلّ شجرة لا تثمر ثمرًا طيّبًا تُقطع وتُلقى في النار. فمن ثمارهم تعرفونهم» (متى ٧: ١٦-٢٠).

٧٩- وانطلاقًا ممّا تقدّم فعلينا أن نحذر، بنوع خاصّ، ضلال الذين يرون في هاتين الشجرتين طبيعتين: إحداهما لله والأخرى ليست له ولا هي منه. لقد ناقشنا بإسهابٍ ذاك الضلال في كتبٍ أخرى؛ وإذا لزم الأمر فسأناقشه أيضًا. إنّنا نبغي الآن إظهار عدم إمكانيّة المقارنة بين الشجرتين. إنّ المسيح يتكلّم هنا على الناس؛ وحسبنا وضوحًا في ذلك أنّنا عندما نقرأ ما يسبق وما يلي لا يسعنا إلّا أن نندهل لعمى أولئك الهراطقة الذين يركّزون على هذه الكلمات: «ليس للشجرة الصالحة أن تثمر ثمارًا خبيثة ولا للشجرة الخبيثة أن تثمر ثمارًا طيّبة»، ويتوهّمون أنّ نفسًا خبيثة لا تستطيع أن تتحسّن وأنّ نفسًا صالحة لا تتردّى؛ بيد أنّ النصّ يقول: «لا تستطيع الشجرة الصالحة أن تثمر ثمرًا رديئًا ولا الشجرة الخبيثة أن تثمر ثمرًا صالحًا، فالشجرة هي النفس ذاتها وهي الإنسان ذاته، وثمار الشجرة هي أعمال الإنسان؛ وعليه، لا يستطيع إنسانٌ شرّير أن يصنع خيرًا ولا إنسانٌ صالح أن يصنع شرًّا حتّى إن أراد الشرّير أن يصنع الخير فعليه أن يصبح صالحًا، وذاك هو ما يعبّر عنه الربّ بوضوح فيقول في موضع آخر: «إجعلوا الشجرة صالحة أو خبيثة»؛ فلو كان يقصد بالشجرتين الطبيعتين اللتين يتكلّم عليهما أولئك الهراطقة لما قال السيّد المسيح: «إجعلوا»، إذ مَنْ من الناس يستطيع

أن يصنع طبيعة؟ وبعد أن تكلّم الربّ على الشجرتين أضاف قائلًا: «أيّها المراؤون، أنّى لكم أن تقولوا كلامًا صالحًا وأنتم أشرار؟» (متى ١٢: ٣٣-٣٤). وعليه فلا يسعنا أن نثمر ثمرًا صالحًا ما دمنا أشرارًا؛ وإن أثمرنا ثمرًا صالحًا فلأنّنا لم نعد أشرارًا؛ بهذا يمكننا أن نقول، بالحقيقة البيّنة، إنّ الثلج لا يمكن أن يكون ساخنًا، وإن صار ساخنًا فلن يُدعى ثلجًا بل ماءً. ويمكن أن يحصل أن ما كان ثلجًا لم يعد كذلك ولا يمكن أن يكون ثلجًا ساخنًا. وعلى هذا النحو فإنّ ما كان شرّيرًا يبطل أن يكون شرّيرًا إنّما يستحيل على الشرّير أن يصنع الخير ولو كان يفيد أحيانًا؛ إنّما ليس هو الذي يصنع الخير بل العناية الإلٰهيّة؛ ولذلك قيل في الفرّيسيّين: «إسمعوا أقوالهم ولا تفعلوا أفعالهم» لأنّهم إن قالوا قولًا حسنًا وفيه فائدة لمن يسمع فيطبّق؛ فليس ذلك منهم: لأنّهم، يقول الربّ، يجلسون على كرسيّ موسى» (متى ٢٣: ٢-٣)؛ لقد كان بوسعهم، إذن، بفضل العناية الإلهيّة، أن يفيدوا سامعيهم، من دون أنفسهم، وهم يبشّرون بكلمة الله وعمل الخير. وعن أناس من ذاك النوع يقول النبيّ: «زرعتم حنطةً فحصدتم شوكًا» (أرميا ١٢: ١٣) لأنّهم علّموا الخير وصنعوا الشرّ؛ والذين كانوا يُصغون إليهم ويعملون بأقوالهم، ما كانوا، إذن، يجنون من الشوك عنبًا، بل يجنون العنب من الكرمة، من بين الشوك، مثلما يجتني إنسان عنبًا من جفنةٍ وهو يمرّ يده من السياج الشائك المحيط بها. فالجنى ثمر الجفنة لا ثمر الشوك.

٨٠- لنا ملء الحقّ، بكلّ تأكيد، في أن نسأل الربّ عن الثمر الذي يريدنا أن نوليه اهتمامنا لمعرفة الشجرة؛ لأنّ كثيرين يعتبرون ثمرًا ما كان جزءًا من لباس النعاج؛ وبه تضلُّهم الذئاب كالصوم مثلًا والصلاة والصدقة وما إليها من سائر الأعمال التي يقوم بها المراؤون؛ وإلّا لما قال سابقًا: «إحذروا من أن تصنعوا برّكم أمام الناس ليروكم» (متى ٦:

١). إنطلاقًا من ذاك المبدأ يشرح الربُّ الأعمال الثلاثة الصالحة: أي الصيام والصلاة والصدقة، فيقول إنّ كثيرين يسخون على الفقراء، لا بدافع الشفقة، بل للتباهي؛ وكثيرون يصلّون أو بالأحرى يتظاهرون بالصلاة من دون أن يكون الله غايتهم؛ بل إرضاءً للناس؛ وكثيرون يصومون ويتباهون بقطاعة تذهل من يرون في تلك الفضيلة عملًا صعبًا ومشرّفًا فتستهويهم تلك الأحابيل ويضلّون، من جهة، بالمظاهر الخدّاعة؛ ومن جهة أخرى يسرقون ويقتلون أولئك الذين لا يعرفون أن يروا ذئابًا في ثياب نعاج. وعليه فإنّ الربّ يحذّرنا من تلك الثمار التي لا يصحُّ أن يُحكم من خلالها على الشجرة. في الواقع حين يصدر ذلك كلّه، عن قلب صادق ومستقيم، تكون الثياب حقًّا ثياب نعاج! أمّا حين يصدر عن ضلالٍ أثيم فذلك لا يُخفي سوى ذئاب؛ إنّما ليس على النعاج أن تتخلّى عن ثيابها لأنّ الذئاب غالبًا ما تستخدمها غطاءً لها حاجبًا.

٨١- إنّه الرسول، إذن، الذي سيقول لنا بأيّ ثمر نعرف الشجرة الخبيثة: «أمّا أعمال الجسد فإنّها ظاهرة، وهي الزنى والدعارة والفجور وعبادة الأوثان والسحر والعداوات والشقاق والحميَّة والغيظ والدسيسة والخصام والتشيُّع والحسد والسكر والقصف وما أشبه؛ وإنّي أنبّهكم كما نبّهتكم من قبل، على أنّ الذين يأتون بمثل هذه المنكرات لا يرثون ملكوت الله». ثمّ يتابع قائلًا: «أمّا ثمار الروح فهي المحبّة والفرح والسلام وطول الأناة واللطف ودماثة الأخلاق والأمانة والوداعة والعفاف؛ وما من شريعةٍ تنهي عن هذه الأشياء» (غلاطية ٥: ١٩-٢٣). ويجب أن نعلَم أنّ كلمة «فرح» تُستعمل هنا بمعناها الحقيقيّ لأنّ الأشرار لا يستطيعون أن يذوقوا الفرح بل يقعون في النشوة كما قلنا سابقًا. أمّا لفظة «إرادة» فتحمل معناها الحقيقيّ الذي لا ينطبق على الأشرار في فكرة النصّ التالي: «إعملوا أنتم أيضًا للناس ما تريدون أن

يعمله الناس لكم» (متّى ٧: ١٢). ويعطي النبيّ أيضًا الفرح المعنى ذاته، مفترضًا أنّه لا وجودَ له إلّا في الصلاح قائلًا: «لا فرح للمنافقين يقول الربّ» (أشعيا ٥٧: ٢١). كذلك في ما يختصّ بالإيمان والذي لا يقال عن أيّ إيمان بل عن الإيمان الحقيقيّ حصرًا الذي لا شبيه له لدى الناس الأشرار والماكرين الذين يضلّون من ليست عينه سليمة، لكي يميّز بها كلّ شيء. ولهذا فقد كان من المناسب الكلام أوّلًا على ضرورة تنقية العين وبعدئذٍ على ما ينبغي تجنُّبه.

الفصل الخامس والعشرون

٨٢- وكما أنّ قراءة ما في قلب الآخر لا يمكن أن تصير حتّى على يد إنسانٍ ذي عين نقيّة وقلب سليم وصادق، فالتجارب هي التي تظهر ما تبقيه الأعمال أو الكلمات مجهولًا. والحال فالتجارب نوعان: إمّا أملٌ بالحصول على منفعة زمنيّة أو الخوف من فقدانها. ولهذا فالحذر ضروريّ مع السعي إلى الحكمة التي لا وجود لها إلّا في المسيح «المكنونة فيه كلّ كنوز الحكمة والعلم» (كولوسي ٢: ٣). وحذار من أن ندع أنفسنا تنخدع، باسم المسيح، على أيدي هراطقة، أو على أيدي مَن هم قليلو التنوّر وتبّاع هذا الدهر. لأجل ذلك فإنّ الربّ يتابع قائلًا لنا: «ليس كلّ من يقول لي يا ربّ يا ربّ يدخل ملكوت السماوات بل من يعمل مشيئة أبي، هو الذي يدخل ملكوت السماوات» (متى ٧: ٢١). فلنحذرنَّ التصوُّر من أنّه حسبنا القول: «يا ربّ يا ربّ» لنكون شجرة صالحة تحمل ثمارًا صالحة. إنّ الثمار الصالحة تقوم على عمل إرادة الآب الذي في السماوات بحسب المثال الذي تنازل فأعطاناه الربّ في شخصه.

٨٣- قد نكون متضايقين في التوفيق بين هذا المقطع للرسول وكلامه القائل: «ما من أحدٍ ينطق بروح لله ويقول إنّ يسوع محروم؛ وما من أحدٍ يسعه أن يقول إنّ يسوع ربّ إلّا بالروح القدس» (١قور ١٢ : ٣). لأنّنا، من جهة، لا نستطيع أن نقول إنّ أناسًا فيهم الروح القدس لن يدخلوا ملكوت السماء، إن هم ثبتوا إلى النهاية؛ ومن جهة أخرى لا يسعنا أن نؤكّد أنّ الذين يقولون يا ربّ، يا ربّ، ولا يدخلون ملكوت السماوات فيهم الروح القدس وماذا تعني، إذن، هذه الكلمات؛ ما «القول إنّ يسوع ربّ» سوى أنّ الرسول يعني من خلالها إرادة من يتكلّم وإدراكه؟ لقد قال الربّ من جهته: ليس كلّ من يقولون لي يا ربّ يا ربّ يدخلون ملكوت السماوات» (متى ٧: ٢١)، لأنّ مَن لا يريد ولا يفهم ما يقول يتظاهر بالقول. إنّما وحده يقول الحقيقة هذا الذي يعبّر عن إرادته وفكره بنبرة صوته. وعلى هذا النحو وفي ما سبق ذكره في تعداد ثمار الروح القدس، تؤخذ لفظة «فرح» بمعناها الحقيقيّ وليس بالمعنى الذي يستعمله الرسول حين يقول: «المحبّة لا تفرح بالظلم» (١قور ١٣ : ٦). كما لو أنّ الإنسان يستطيع أن يفرح بالظلم! وكما لو أنّ ذلك لم يكن اضطرابًا وقلقًا في النفس وليس الفرح الذي يذوقه الأبرار من دون الآخرين! إذن، يمكن الإنسان أن يتظاهر بالقول حين يكتفي بأن يقول من دون أن يفهم ومن دون أن يمارس ما يقوله؛ وفي هذا المعنى يقول الربّ: «ليس كلّ من يقولون لي يا ربّ، يا ربّ، يدخلون ملكوت السماوات» بل الذين ينطقون بالحقّ والذين تتوافق الإرادة والفهم لديهم مع كلامهم؛ وبهذا المعنى قال الرسول: «لا أحد يستطيع أن يقول إنّ يسوع ربّ إلّا بالروح القدس».

٨٤- إنّ نقطة هامّة جدًّا تتعلّق بهذا الموضوع وهي أنّنا في سعينا إلى معرفة الحقيقة ما انخدعنا بمن يتلبّسون باسم المسيح، من دون أن

يسيروا في سبيله ولا ببعض الأحداث والعجائب التي صنعها أمام غير المؤمنين؛ وقد حذّرنا من الأخذ بها ومن افتراض حكمة خفيّة وراء آية مرئيّة. ولهذا فإنّه قد أضاف قائلًا: «سوف يقول لي كثيرون في ذلك اليوم، يا ربّ، أليس باسمك تنبّأنا وباسمك طردنا الشياطين وباسمك صنعنا آياتٍ كثيرة؟ وآنذاك سوف أقول لهم: أنا ما عرفتكم قطّ، اذهبوا عنّي يا فعلة الإثم» (متى ٧: ٢٢-٢٣). إذن، لن يتعرَّف الربّ إلّا على مَن يمارس البرّ لأنّه حرَّم حتّى على تلاميذه أن يفرحوا بمثل تلك الأمور، مثلًا، كأن تطيعهم الشياطين. إنّما يقول لهم: «إفرحوا لأنّ أسماءكم قد كتبت في السماوات» (لوقا ٧: ٢٠)؛ يعني، بحسب ما أظنّ، في تلك المدينة، أورشليم السماويّة حيث الأبرار والصدّيقون وحدهم يملكون. «ألا تعلمون، يقول الرسول، أنّ الفجّار لن يرثوا ملكوت الله؟» (١ قور ٦-٩).

٨٥- وربّ إنسان يقول إنّ الفجّار لا يقوون على صنع الآيات المرئيّة وسوف ينظر إلى مَن يقولون: «باسمك تنبّأنا وباسمك طردنا الشياطين وصنعنا آيات كثيرة» على أنّهم كذّابون. وليقرأ حينذاك ما فعله سحرة مصر، مقابل موسى، خادم الله (سفر الخروج ٧ و٨) وإن لم يشأ متذرّعًا بأنّ أولئك السحرة لم يعملوا باسم المسيح، فليقرأ أقلّه، ما قال المسيح نفسه على الأنبياء الكذبة: «وإن قال لكم أحد حينئذٍ: ها هو المسيح هنا أو هناك فلا تصدّقوه لأنّه سيظهر مسحاء كذبة وأنبياء كذبة ويأتون بآياتٍ وخوارق عظام فيضلّون بها حتّى المختارين إن استطاعوا ها إنّي قد أنبأتكم» (متى ٢٤: ٢٢-٢٣).

٨٦- ما أحوجنا، إذن، إلى عينٍ نقيّة وبسيطة وصولًا إلى الحكمة التي ينسج حولها الناس الفاسدون والأشرار الكثير من الأحابيل

والأضاليل! إنّ التخلّص من جميع مكائدهم يعني بلوغ السلام الأكيد والحكمة الثابتة التي لا تتغيّر. إذ يُخشى كثيرًا من ألّا نرى في حماة النقاش والجدل إلّا ما أعطي للقليلين أن يروه، نظرًا إلى أنّ صخب التناقض بسيط، ما لم نقمْ به، نحن أنفسنا؛ ولقد تكلّم الرسول عليه قائلًا: «لا يجوز لخادم الربّ أن يماحك؛ بل عليه أن يكون وديعًا، لطيفًا مع الجميع، قادرًا على التعليم، صبورًا، يؤدّب المخالفين بوداعة، آملًا بأن يمنحهم الله يومًا روح التوبة لمعرفة الحقّ» (٢ تيموتاوس ٢: ٢٤-٢٥). إذن، طوبى لفاعلي السلام فإنّهم أبناء الله يُدعون» (متى ٥: ٩).

٨٧- يجب علينا، إذن، أن ننتبه جيّدًا إلى الخلاصة الرهيبة لهذه الخطبة بأكملها: «مثلُ من يسمع كلماتي هذه ويعمل بها، مثل رجل عاقل بنى بيته على الصخر». وفي الواقع، بالعمل نرسّخ ما نسمع ونفهم؛ وإذا كان المسيح هو الصخر، بحسب ما يعلّمنا الكتاب في عدّة مواضع (١قور ١٠: ٤)، فإنّ الذي يعمل بموجب تعاليم المسيح هو ذاك الذي يبني على المسيح فإذا «انهمر المطر وجرت السيول وهبَّت الرياح وضربت ذلك البيت» (متى ٧: ٢٥)، لن يكون لذلك الإنسان ما يخشاه من الأضاليل الشيطانيّة؛ وليس للمطر من تفسير آخر، إن أخذ بالمعنى المجازيّ، ولا من ترّهات البشر المشبّهة بالرياح، على ما أظنّ، ولا من سيول هذه الحياة، أي الانجراف في تيّارات الفسق والفجور التي تغرق، نوعًا ما، الأرض. والحال فإنّ تلك الآفات الثلاث هي التي تدمّر الإنسان الذي يغريه الرخاء؛ إنّما ليس علينا أن نخشى شيئًا إن كان لنا بيتٌ مؤسّس على الصخرة، أي عندما لا نكتفي بسماع أوامر الله بل نعمل بموجبها. وعلى نقيض ذلك، فالذي يسمعها، ولا يعمل بها، يتعرَّض بشكلٍ خطير لكلّ تلك الأخطار لأن

ليس له أساس راسخ. فهو إذ يسمع ولا يعمل يقيم بناءً متداعيًا ولذلك يضيف المسيح قائلًا: «ومثل من يسمع كلامي هذا ولا يعمل به، مثل رجلٍ أحمق بنى بيته على الرمل فانهمر المطر وجرت السيول فضربت ذلك البيت فسقط وكان سقوطه عظيمًا.

«ولمّا فرغ يسوع من هذه الكلمات، عجبت الجموع من تعاليمه لأنّه كان يعلّمهم كذي سلطانٍ، لا مثل كتبتهم وفرّيسيهم». لقد أشرتُ سابقًا إلى أنّ صاحب المزامير قد تنبّأ بهذا كلّه حين قال: «أقوال الربّ أقوالٌ نقيّةٌ، فضّةٌ محمّاة بالنار، مستخرجةٌ من التراب، مصفّاة سبع مرّات» (مزمور ١١ : ٧). ذاك هو العدد ٧ «سبعة» الذي جعلني أربط تلك الوصايا، الطوبيّات السبع التي فاه بها الربّ في مطلع خطبته، وبمواهب الروح السبع التي أشار إليها النبيّ أشعيا (١١ : ٢-٣). ولكن، سواءٌ اعتمدنا هذا التصنيف أو آثرنا سواه، علينا أن نعمل بما تعلّمناه من الربّ، إن أردنا أن نبني على الصخرة.

فهرس المحتويات

صدر في سلسلة **«التراث الروحيّ»**

١. **أناشيد من ديانات الشرق القديمة**، عرَّبها وقدَّم لها وعلَّق عليها جورج يونس.
٢. **أوغسطينُس أسقف هيبُّون - الاعترافات**، نقلها إلى العربيَّة الخورأسقف يوحنّا الحلو (✝)، قدّم لها وحقّقها ووضع فهارسها الأب جوزيف كميل جبارة.
٣. **شرح رسالة القدّيس يوحنّا الأولى للقدّيس أغوسطينوس**، نقلها إلى العربيّة الخورأسقف يوحنّا الحلو.
٤. **خواطر فيلسوف في الحياة الروحيّة للقدّيس أغوسطينوس**، نقلها إلى العربيّة الخورأسقف يوحنّا الحلو.
٥. **مجموعة الرسائل الروحيّة ليوحنّا الدلياتيّ**، الشيخ الروحانيّ، نقلها عن السريانيّة وقدّم لها الأب سليم دكّاش اليسوعيّ.
٦. **كتاب الصلوات**، **لغريغوريوس الناريكيّ**، نقله عن الفرنسيَّة الأب جورج عقل اليسوعيّ.
٧. **أفراهاط الحكيم الفارسيّ: المقالات**، نقلها إلى العربيّة وقدّم لها الخوري بولس الفغالي.
٨. **أقوال الشيوخ**، **حِكَم آباء البرِّيَّة**، اختارها ونقلها إلى العربيّة الأب كميل حشيمه اليسوعيّ.
٩. **ثيودورُس أسقف المصّيصة: العظات التعليميّة**، نقلها إلى العربيّة وقدَّم لها الخوري بولس الفغالي.
١٠. **الرياضة الروحيَّة أو الحاشية في تدبير رياضة المتروّضين للمطران جرمانوس فرحات**، حقَّقها وقدَّم لها الأَب سليم دكّاش اليسوعيّ.
١١. **مجموعة الميامر الروحيَّة ليوحنّا الدلياتيّ**، **الشيخ الروحانيّ**، نقلها عن السريانيَّة وقدَّم لها الأب سليم دكَّاش اليسوعيّ.

١٢ . **مدينة الله للقدّيس أَوْغُسطينُس، المجلّد الأوّل (الكتب ١-١٠)**، نقله عن الفرنسيَّة الخورأسقف يوحنّا الحلو.
١٣ . **مدينة الله للقدّيس أَوْغُسطينُس، المجلّد الثاني (الكتب ١١-١٧)**، نقله عن الفرنسيَّة الخورأسقف يوحنّا الحلو.
١٤ . **مدينة الله للقدّيس أَوْغُسطينُس، المجلّد الثالث (الكتب ١٨-٢٢)**، نقله عن الفرنسيَّة الخورأسقف يوحنّا الحلو.
١٥ . **ميتوديوس الأولمبيّ: الوليمة**، نقله عن الفرنسيَّة الأب صبحي حموي اليسوعيّ.
١٦ . **القدّيس أَوْغُسطينُس: محاورة الذات**، نقله عن اللاتينيّة الخورأسقف يوحنّا الحلو.
١٧ . **أَرِسْتيدُس الفيلسوف الأَثينائيّ: الدفاع (بحسب رواية بَرْلَعام ويوآصاف)**، نقله إلى العربيّة وقدَّم له وعلَّق عليه ووضَعَ فهارسه الأب جوزيف كميل جبارة.
١٨ . **القدّيس أَوْغسطينُس: تعليم المبتدئين أصول الدين المسيحيّ - في الحياة السعيدة - في الكذب**، نقله إلى العربيّة الخورأسقف يوحنّا الحلو.
١٩ . **رسائل إقليمس الرّومانيّ - إغناطيوس الأنطاكيّ - بوليكاربُس السَّميرنيّ**، نقلها إلى العربيَّة سعد الله سميح جحا.
٢٠ . **رسائل هيرونيمُس، الجزء الأوّل (١-٦٧)**، أعدّها وقدّم لها ووضع حواشيها سعد الله سميح جحا.
٢١ . **رسائل هيرونيمُس، الجزء الثاني (٦٨-١٥٠)**، أعدّها وقدّم لها ووضع حواشيها سعد الله سميح جحا.
٢٢ . **هيرونيمُس، مشاهير الرجال**، نقله إلى العربيّة وقدَّم له وعلّق عليه ووضع فهرسه الأب جوزيف كميل جبارة.
٢٣ . **الرَّسائل المتبادلة بين القدِّيسَيْن هيرونيمُس وأَوْغسطينُس**، نقلها إلى العربيّة سعد الله سميح جحا.

٢٤. **المطران جرمانُس فرحات، تعريبُه مزمور «إرحَمْني يا الله...» لإيرونيمُس سافونارولا الدّومينيكيّ**، حقَّقه وقدّم له الأب سليم دكّاش اليسوعيّ.

٢٥. **عظات في المزامير للقدّيس أَوْغسطينُس، الجزء الأوّل، المزامير** (١-٣٦)، نقلَها إلى العربيّة وضبط حواشيها سعد الله سميح جحا.

٢٦. **عظات في المزامير للقدّيس أَوْغسطينُس، الجزء الثاني، المزامير** (٣٧-٦٠)، نقلَها إلى العربيّة وضبط حواشيها سعد الله سميح جحا.

٢٧. **«لا أحدَ طيِّبٌ وصالحٌ مثل إلٰهنا» - رياضة روحيّة مع الشيخ الروحانيّ يوحنّا الدلياتي (من القرن الثامن) في الفصح والإفخارستيا** - تأليف الأب سليم دكّاش اليسوعيّ.

٢٨. **عظات في المزامير للقدّيس أَوْغسطينُس، الجزء الثالث، المزامير** (٦١-٧٩)، نقلَها إلى العربيّة وضبط حواشيها سعد الله سميح جحا.

٢٩. **عظات في المزامير للقدّيس أَوْغسطينُس، الجزء الرابع، المزامير** (٨٠-١٠٢)، نقلَها إلى العربيّة وضبط حواشيها سعد الله سميح جحا.

٣٠. **عظة الجبل للقدّيس أوْغسطينُس**، نقلها إلى العربيّة الخورأسقف يوحنّا الحلو.

التدقيق اللغويّ: **آن ماري شكّور**

الطباعة : **المطبعة العربيّة ش.م.ل.**

٢٠١٧/١٢/١٥-١-٥١٤٢

منشورات :
دار المشرق ش.م.م.
ص.ب. ١٦٦٧٧٨
الأشرفيّة، بيروت ٢١٥٠ ١١٠٠ لبنان

التوزيع
مكتبة إسطفان
موزّعون - ش.م.ل.
ص. ب: ٥٠١٦٥، فرن الشبّاك
بيروت ـ لبنان

ISBN 2-7214-5556-7



Réf: RELPAT000030A

مكتبة الكتب المسيحية



روحية

كتاب لاهوت المرض – جان كلود لارشي – تعريب روزيت جبور تعاونية النور الارثوذكسية – تحميل pdf

مارس 24, 2018



العهد الجديد

كتاب شبهات وهمية حول الكتاب المقدس – إعداد الدكتور القس منيس عبد النور – تحميل الكتاب pdf

مارس 24, 2018



روحية

كتاب الايادي الضارعة – ميشال كواست ترجمة الاب فكتور الدويهي دار المشرق – تحميل الكتاب pdf

مارس 24, 2018



مقالات

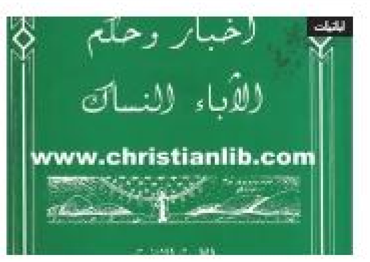
لا تموت قبل أن تقرأ هذه الكتب – ترشيحات الفيلسوف بيتر كريفت Peter Kreeft

مارس 21, 2018

كتب روحية



كتاب الباحث عن الله – مذكرات كتبها الفيلسوف المصري المشهور نوستراداميس – د ق لبيب مشرقي pdf



كتاب من اخبار و حكم الآباء النساك – نقله عن اليونانية الاب منيف حمصي – تحميل الكتاب pdf



كتاب يوميات طبيب في ضوء الكتاب المقدس – بول تورنيه – مكتبة دار الكلمة LOGOS – تحميل pdf



كتاب لاهوت المرض – جان كلود لارشي – تعريب روزيت جبور تعاونية النور الارثوذكسية – تحميل pdf



كتاب الايادي الضارعة – ميشال كواست ترجمة الاب فكتور الدويهي دار المشرق – تحميل الكتاب pdf



كتاب صوم يونان و الصوم الكبير – الاب متى المسكين – سلسلة عظات مختارة على اناجيل القداسات pdf